قصص قصيرة

من الأدب التركي

دار المحرر الأدبي

في تاريخ الأدب التركي

للأستاذ عطا الله ترزي باشا المحامي

في وسعنا أن نقسم تاريخ الأدب التركي إلى عصرين أساسيين: جاهلي وإسلامي، وأن نقسم كذلك كلا من هذين العصرين إلى أدوار مختلفة. .

ورأينا أن نتحدث في هذا المقال عن تاريخ الأدب التركي منذ نشأته حتى تأسيس الدولة العثمانية بإيجاز.

يتكون العصر الجاهلي من دورين هامين:

(أولا) دور الأدب المظلم، ولا نعرف عنه أكثر مما يرويه لنا المؤرخون من (مناقب الترك) المعرفة ب (الدساتين) وهي تتضمن بعض القصص والروايات التاريخية عن نشأة الأتراك وقيامهم بتأسيس الدويلات. وتحتوى كذلك على تراجم بعض الملوك والأمراء والقواد. وأشهر هذه الدساستين دستان (أوغوز خان) ودستان (بوزقورت) ودستان (شو) وغيرها. . . ولم يعرف الترك في هذا الدور الكتابة وإنما انتقلت إلينا هذه الدساتين من بعض الآثار التاريخية القديمة.

(ثانيا) دور الأدب المكتوب: وشاع في هذا الدور استعمال الكتابة بين الترك. والكتابة الأولى التي عثرت عليها في التاريخ هي التي اكتشفها العلماء بالقرب من مدينه (طورفان) في الشمال الشرقي من (منغوليا) على ضفة نهر (اورخون). فقد وجدت في هذه النواحي ألواح من الرخام مثبتة في الأرض نقشت عليها بعض الكتابات. وكان أهمها ثلاث كتابات تعرف ب (تونيو قوق) و (كول تكين) و (بيلكه قاغا). ويرجع تاريخ الكتابة الأولىإلى سنة ٧٢٠م والثانيةإلى سنة ٧٣٢م والثالثة إلى سنة ٧٣٥م. وقد ثبتت هذه الألواح التي تبحث عن حروب الترك مع الصينيين في جانب زعماء تولوا عرش الدولة التركية المسماة ب (كوك تورك)

ويعتبر (بيلكه تو نيوقوق) أول أديب عرف في تاريخ الأدب التركي على الإطلاق

ولقد أشار إلى وجود هذه الكتابات في أول الأمر المؤرخ الإيلخاني المعروف (جوبني) وذلك في القرن الميلادي الثالث عشر. وذكرها أيضا الدكتور الألماني دانيل مسرشميد حين رآها (سنة ١٧٢١م) أثناء قيامه برحلات في هذه الأنحاء

وسماها بالكتابات الطلسمية ويعود الفضل في أمر اكتشافهاإلى العالم الدانيماركي طومسن

فقد وفق لأول مرة في ٢٥١١١٨٩٣ إلى قراءة كلمات (ترك،ننكري، كول تكين). وتمكن هذا المستشرق بعد ذلك من حل رموز الكتابة وقراءتها بكاملها. وكذلك استطاع من بعده العالم الألماني الشهير رودلف أن يترجمها ترجمة صحيحة.

وفي القرن التاسع من الميلاد أراد الأتراك، وقد هجروا استعمال هذه الكتابة، أن يتعلموا لونا جديدا من الكتابة تسمى بالكتابة الأويغورية. وقد انتقل إلينا كثير من الكتب التركية القديمة المدونة بهذه الكتابة، كانت موضع دراسة العلماء والباحثين، منها كتاب ، وقد حققه العالمان بنج وفون جربيان ومنها كتاب (المتون ألمانية التركية) نشره فون لكك كتاب جمع بين دفتيه كثيرا من العقائد والأدعية في المذهب وهو ألماني الذي انتشر بين الترك في ذلك العصر. ومنها كتب نشرت من قبل أكاديمية العلوم النمساوية بعنوان وأخرى ذات قيمة أدبية عثرت عليها في مدينة (طورفان).

وهنا ينتهي العصر الجاهلي من الأدب التركي وبانتهائه تضمحل الكتابات القديمة شيئا فشيئاً حتى تنقرض وتحل محلها الكتابة الإسلامية بالتدريج.

العصر الإسلامي:

إن هذا العصر في الأدب التركي يتكون من أدوار مختلفة تتبع في تقسيمها ما يلي:

صدر الإسلام: وجد الأتراك، حين احتكوا بالمسلمين في القرن الميلادي الثامن، أن هذا الدين يقوم على نظام اجتماعي متين، ويستند على أسس أخلاقية تتشابه مع قواعد العرب والعادات السائدة بينهم. فاعتنقوه على عجل. وقد انتشر الدين الإسلامي بين الأتراك انتشارا عظيما حتى أسلمت الأقوام التركية الساكنة في البلاد المتاخمة لحدود الصين جماعات ووحدانا. ولم يبق منهم غير أفراد قلائل لم يسعدهم الحظ في الاتصال بالمسلمين.

ولقد أفاد الترك من الإسلام إفادة جلى. فنظموا حياتهم الاجتماعية وفقا لاعتبارات هذا الدين الجديد. فانتقلوا من طور البداوة إلى طور الحضارة، فبدءوا يسكنون المدن وقد

اعتزلوا الحياة القبلية إذ رحلوا بعد الإسلام إلى الديار القريبة من مراكز الخلافة الإسلامية.

ولم يؤثر في الحياة الأدبية عند الأتراك دين من الأديان التي اعتنقوها قبلا بقدر ما أثر فيها الدين الإسلامي الحنيف. ويتطلب دراسة هذا التأثير بنوعيه الإيجابي والسلبي تفصيلا وتمحيصا، وقد أجزناها الآن في سطور عسى أن نجد فرصة أخرى نعالج فيها هذا الموضوع بالشرح والتمحيص.

لقد كان أثر الإسلام في الأدب التركي أعظم من أثره في الأدب العربي كما تبين ذلك من الآتي:

غير الإسلام من غير شك مجرى الحياة الأدبية عند الأتراك تغييرا عظيما. فأخرج الأدب التركي من عزلته الجاهلية وأدخله في قائمة الآداب الشرقية الحية. فنرى منذ ذلك اليوم ازدهاراً كبيرا ونمواً متزايداً في النتاج الأدبي عند الترك. ويندر أن نجد آثارا خلفها الترك من عصر جاهليتهم، إذ أن غالب الآثار التي أنتجها رجال الفكر التركي منشؤها هذا الدين القيم الذي مهد السبيل أمام المفكرين وأنار لهم الطريق، طريق الرقي في مدرج العلم والثقافة.

وقد كان من آثار هذا الدين اقتباس الترك الأفكار الأدبية من خزائن الآداب الإسلامية الأخرى أضافتها إلى ثروتهم

وكان الأدب التركي في الجاهلية أدبا فرديا غير متسم بطابع الأدب الجماعي، ونعني بالأول ذلك اللون من الأدب المشتت شمله والمجهول عوالمه، الصادر عن عقلية ضعيفة غير متكاملة. فما كان من الإسلام إلا أن وجد اتجاه الأدباء في أساسه توحيدا كاملاً

ولا ينكر ما لهذا الدين من تأثير سلبي في الأدب التركي من بعض الوجوه، كاللغة. وقد كانت اللغة التركية خالصة في أصلها، خالية من الألفاظ الأجنبية. وبعد نشوء العلاقة الدينية بين الأتراك وبين غيرهم من الأقوام بدأت الألفاظ الغريبة من فارسية وعربية تتسرب إلى هذه اللغة بالتدريج حتى شاع بين الأتراك استعمال بعض القواعد الأجنبية في الكتابة استعمالا أذهب عن اللغة التركية روعتها.

وقد تأثر الكتاب الأتراك بلغة القرآن تأثراً بليغاً حتى حدا بعضهم إلى استعمال اللغة العربية في الكتابة عوضا عن لغته الأصلية. وقد أنتجوا كثيرا من المؤلفات القيمة في هذه اللغة من بينهم فلاسفة عظام ومفكرون مشهورون. أمثال

الفارابي وأبن سينا والزمخشري - صاحب الكشاف ومؤلف كتاب مقدمة الأدب - كما وأن آخرين منهم انساقوا بسبب الملابسات والظروف إلى استعمال الكتابة الفارسية بدلا من التركية أمثال جلال الدين الرومي صاحب المثنوي المعروف وغيره من المفكرين.

التصوف في الأدب التركي:

ليس من شأننا الآن أن نتحدث عن تاريخ التصوف الإسلامي في عصوره المختلفة، وإنما وددنا أن نتطرق بإيجاز إلى النواحي الأدبية منه بقدر ما يتعلق بالموضوع .

إن آثار التصوف بدأت تظهر شيئا فشيئا في الأدب التركي منذ القرن الثالث عشر الميلادي، وذلك حينما استخدم العالم المعروف الشيخ محيي الدين بن العربي نظريته المعروفة (وحدة الوجود) التي كان لها الأثر البالغ في الأدب التركي طوال العصور.

وقد تأثر شعراء الترك كذلك بفلسفة الجاذبية الإلهية التي كان أصحابها يوقنون بتمثيل القدرة الإلهية في النفس البشرية عن طريق الإيمان بذاته إيمانا يطرد الشرور الكامنة في النفس، فيتجسم النور الإلهي في القلوب تجسما يحيه

المؤمن في كل حين. . وكان هؤلاء الرجال يعشقون جمال الله عشقا خالصا لا يخامرهم فيه شك ولا يأخذهم منه ريب، ولم يكن هذا العشق الإلهي في نظرهم كالحب المجازي الذي يشعر به الإنسان تجاه الآخرين، بل كانوا يعتبرونه مودة صافية ناشئة من فرط ميلهم للوجود المطلق .

ومن استطاع في رأيهم أن يتغلب على النفس الأمارة بالسوء بدافع غلاب لا يحمله إلا القليلون، واندمج في الوجود المطلق، فقد بلغ الغاية القصوى ونال الدرجة العليا في سلك التصوف فحاز رتبة (الفناء في الله) .

ولقد تظاهر كثير من شعراء الفلسفة زمنا غير قليل، نذكر منهم الشاعر المعروف (نسيمي) من شعراء القرن الرابع عشر ميلادي الذي ألف ديوانا ضخما في الشعر التصوفي، وقد اشتمل هذا الديوان على قصائد جياد في تحبيذ ما ذهب إليه الصوفي الإسلامي الكبير (الحلاج المنصور) وكان نسيمي قد سلك مسلك الحلاج في قوله (أنا الحق) مما أثار ضجيج العلماء في عصره، فاغتاظ منه رجال الدين وأمروا بقتله فكشطوا جلده حيا فهلك.

ومنهم الشاعر الإنساني العظيم (يونس أمره) وهو أحق أن نفرد له مقالا خاصاً ليتبين القارئ مدى قيمته الأدبية ومنزلته الممتازة بين الشعراء الصوفيين. ونكتفي اليوم بإيراد منظومة مترجمة من قصيدة مطلعها:

برساقيدن ايجدم شراب عرشدن بوجه ميخانه سي

يقول:

تناولنا الخمر من ساق كانت خمارته فوق العرش فأصبنا بالخمارة السكر، ففدينا الأرواح

حبذا هذا المجلس الذي تشوى فيه الأكباد على نار شمع وهاج تدور حوله الشمس كما تطير الفراشة حول النار

وفي هذا المجلس تنطلق صيحات (أنا الحق) من أفواه المخمورين الذين يعد أفقرهم في التصوف، في مستوى الحلاج المنصور ثم ينهي الشاعر منظومته بخطاب يوجه إلى نفسه قائلا:

حذار من مخاطبة الجاهلين بهذا الكلام الفياض

فإنك تعلم كيف يقضي هؤلاء الوقت. . .

ويلاحظ في هذه القصيدة أن الشاعر كنى عن الإله بالساقي. وعبر بالخمر عن العشق الإلهي. كما أنه روى حرقة كبده في حب الإله بشي الكباب في مجلس الشراب.

وقد انتشرت هذه الألوان من المصطلحات الصوفية بين الشعراء حتى شاع استعمال كثير من تعابير اللهو والطرب في موضوع التغني بذكر الله. . .

قلنا في سياق الكلام عن التصوف أن القرن الثالث عشر الميلادي يعد مطلع نبوغ المتصوفة الأتراك، وذلك لسببين: أحدهما الرغبة الشديدة التي كان السلاجقة الأتراك يبدونها للمتصوفين ورجال الدين، وثانيهما هجرة المتصوفين إلى بلاد الأناضول، وذلك من جراء الغزوات التي كانت تشنها المغول في الشرق. فسكن هؤلاء في الأناضول، وشرعوا يؤسسون الطرائق الدينية. وكان مؤسس الطريقة يدعى (بير) أو الشيخ، وهو يعد زعيم طريقته وحامل لوائها. ويخلفه من بعده شيخ آخر بإجازته. وأما الذين كانوا يسلكون تلك الطرائق ويتبعون الشيوخ فكانوا يُدعون بـ (الدراويش). والمكان الذي فيه يقيمون الشعائر الدينية الطقوس العبادات المختلفة، يسمى (التكية)، وتوسعت هذه التكايا

بمر الأيام وكر الأعوام فتأسست لها فروع واجتمع حولها أهل التصوف ينقرون الدفوف ويضربون الطبول وينفخون في المزمار. فيطربهم النغمات المنطلقة من قلوب ملؤها الحب والهوى، فيرقصون برقصات الدروشة المعروفة ويتغنون بالأشعار الصوفية التي ينظمها شعراؤهم البارزون. ولهذا كنا نرى الشعراء يتبارون في نظم المقطعات الشعرية التي تلائم هذه الحياة الموسيقية، تلك المنظومات الموزونة بأوزان تركية خاصة وإن كان قد شاع بينهم العروض.

ويلاحظ في هذا العصر إن الأدب التركي تأثر كثيراً بالأدب الفارسي، كما أن هذا الأخير تأثر بالأول من بعض الوجوه، وذلك بسبب الاختلاط الذي حدث حينذاك بين العناصر الإسلامية المختلفة. فنرى كثيراً من شعراء الترك، وبالأخص المتصوفة منهم، ينظمون الشعر باللغة الفارسية أو أنهم يقتبسون القواعد الشعرية الفارسية وأساليبها، أو يستعملون ألفاظا فارسية في أشعارهم. ولا ننس بعض الشعراء ممن نسبوا لغتهم الأصلية أو هجروها في الأدب. وكذلك نجد شعراء كثيرين من الفرس برعوا في التفنن بالأدب التركي. . وهكذا فإن الحياة الاجتماعية في ذلك

العصر كانت حياة متداخلة امتزجت بها الشعوب الشرقية تحت لواء الدين، فنتج من اتحاد هذه العناصر عنصر أدبي متماسك في الروح والجوهر، وإن كان متبايناً في اللون والمظهر.

دور الأدب التركي فيما قبل العهد العثماني:

ويشمل هذا الدور عهد الدولة الغزنوية (سنة ٩٦٢م - ١١٨٣م) والدولة القاراخانية (٩٣٢ - ١٢١٢م) والدولة السلجوقية (من القرن الحادي عشر إلى القرن الثالث عشر الميلادي) وعهد المغول (من القرن الثالث عشر إلى القرن الرابع عشر الميلادي)

وتميزت هذه العهود بتحسن الوضع الاجتماعي للأتراك تحسناً كبيراً؛ فبسطوا سلطانهم في داخل البلاد الإسلامية وكونوا لهم مركزاً ممتازاً بين المسلمين. وقد زاد اتصالهم بالعرب في هذه العهود وقويت العلائق بينهم وبين الفرس والهنود، فنشأت علاقات ثقافية وثيقة كان لها من الأثر ما كان.

إن الآثار الأدبية التي انتشرت في هذه العهود، والتي انتقلت إلينا على علاتها إنما مصدرها عهد الدولة الغزنوية.

وقد تأسست هذه الدولة في بلاد الأفغان ومناطق البنجاب من الهند. وتوسعت شيئاً فشيئاً حتى بلغت أوج عظمتها في عهد السلطان محمود الغزنوي الذي كان يعطف على الشعراء والأدباء ويشجع الثقافة في البلاد فقد ظهر في هذا العهد كتاب وعلماء مشهورون، وكان جل اهتمامهم بالفارسية وظهر كذلك في هذا العصر بعض الآثار العربية. أما الآثار التركية التي عنى بها رجال الفكر التركي فهي قليلة جدا. ولقد انتقلت إلينا من عهد القاراخانيين مؤلفات أدبية قيمة، وكذلك آثار نفيسة من عهد السلاجقة، يستدل منها على أن الأدب التركي في هذا الدور كان في عنفوان تكامله

ومن الآثار التي يصادف تاريخها هذه العهود كتاب (قوراتغوبليك) الذي كتبه الأديب التركي (يوسف خاص حاجب) في سنة ٤٦٢ هـ بمدينة كاشغر، وقدمه إلى الأمير القاراخاني (تابغاج قره بغراخان) فنصبه هذا حاجباً خاصاً في قصره، ومن هنا سمي بهذا اللقب. ويتضمن كتابه أشعاراً أخلاقية نظمها لغة تركية خالصة يندر فيها العثور على ألفاظ أعجمية. فهي هذا الاعتبار أشعار لها قيمتها العظيمة

في الأدب واللغة التركية من حيث الإفادة في استعمال كثير من الكلمات التركية المهجورة في الكتابة الحديثة.

ويوجد من هذا الأثر ثلاث نسخ خطية، وجد إحداها المؤرخ المعروف (هامر) في استنبول، وكانت مكتوبة بالخط التركي القديم (الأويغوري) فأرسلها إلى مكتبة فيانة حيث حققها المستشرقون هناك ونشروها مراراً. ويرجع تاريخ هذه النسخة إلى سنة ١٤٣٩ م. أما الثانية فوجدت في مدينة (فرغانة) وكانت مدونة بالحروف التركية العربية. أما النسخة الثالثة فإنها محفوظة في دار الكتب المصرية بالقاهرة.

وكتاب (عيبة الحقائق) الذي ألفه الشاعر أحمد بن محمود في القرن الثالث عشر الميلادي باللهجة التركية الكاشغرية وهو مجموعة منظومات في النصح والإرشاد. وقد وجد النسخة الخطية الأولى منها الأستاذ نجيب بك عاصم مدرس اللغات الشرقية في دار الفنون باستنبول، في مكتبة أيا صوفيا. وكانت مكتوبة بالحروف التركية القديمة (الأويغورية) وبالحروف التركية العثمانية (العربية). فتمكن من تحقيقها ونشرها في سنة ١٩١٨

وكتاب (ديوان لغات الترك) وهو يعد بمثابة معجم، كتبه محمود حسين الكاشغري سنة ٤٧٠ هـ ببغداد ليكون مرشدا للمتعلمين، وكان هذا المؤلف يحذق اللغة العربية بقدر ما يجيد لغته التركية، وقد سكن في بغداد مدة خمس سنوات (بين سنة ١٠٧٢م وسنة ١٠٧٧م) في الوقت الذي كانت البلاد العراقية تحت حكم السلاجقة، فأهدى كتابه هذا إلى الخليفة العباسي المقتدي بالله وهو أثر قيم يماثل دوائر المعارف في هذا العصر، فقد اشتمل على خمسمائة وسبعة آلاف مادة في اللغة والأدب والتاريخ والجغرافية، وهو يصور الحياة الاجتماعية والأدبية في ذلك العصر خير تصوير، وقد استفاد منه الأتراك في الوقت الحاضر استفادة كلية في استنباط الحقائق التاريخية والأدبية، واستخراج المواد اللغوية التي استعاضوا بها عن الألفاظ العربية والفارسية

وقد وجدت نسخته الخطية في استنبول فحققها المعلم رفعت الكليسي ونشرتها وزارة المعارف التركية في ثلاث مجدات، ثم قام بطبعها ثانية مؤتمر اللغة التركية بإشراف الأستاذ بسيم آتالاي.

مشاهير الشعراء في هذا الدور:

وأول من يتبادر إلى الذهن الشاعر الصوفي الشهير (أحمد يسوي) مؤسس الطريقة اليسوية في تركستان، ولد في مدينة (سايرام) من بلاد تركستان، ودرس العلوم على الشيخ يوسف الهمداني في مدينة بخاري، ثم عاد إلى المدينة (يسه) حيث أسس أول تكية تركية في التاريخ هناك، وتوفى سنة ٥٦٢هـ أما تاريخ مولده فغير معروف، ويذهب (مليورانسكي) إلى أنه توفى بالغاً من العمر ستة وثلاثين سنة مستدلا على ذلك من بعض أشعاره.

لقد كان هذا الشاعر من عظماء المتصوفين في وقته، وأشتهر كزعيم ديني كبير ومرشد وولي كامل، فكانت الجماعات الغفيرة تلتف حوله يأملون منه اللطف وينالون الدعاء. . وكان لأدبه أثر عميق في النفوس. وعرف ديوانه الشعري بين الناس بديوان الحكمة لأنه كان يتضمن من الحكم البالغة والمواعظ الحسنة والأمثال.

الخوجه دهاتي

وقد عرفه إلى عالم الأدب لأول مرة الأستاذ فؤاد كوبريلي، إذ كان هذا الشاعر غير معروف في الأوساط الأدبية حتى

تمكن الأستاذ كوبريلي من العثور على بعض الوثائق التاريخية في جوانح المكتبات. وتمكن بعد ذلك من التعمق في البحث حتى حصل على كثير من المعلومات حوله، فنشرها في بعض المجلات التركية ويتضح من تلك الدراسات أنه كان خراساني المولد وأناضولي النشأة، حيث أدرك عصر الأمير علاء الدين كيقباد، وعاشر هذا الأمير مدة من الزمن، مدحه في بعض قصائده. وهو يعد أول شاعر تركي جمع ديواناً مرتباً على الحروف الهجائية، إذ لا نعرف شاعراً تركياً آخر سبقه في هذا الخصوص

جلال الدين الرومي:

ولد في ٣٠أيلول١٢٠٧ م (٦٠٤ هـ) في مدينة (بلخ) وتوفى سنة ٦٧٢ هـ في ولاية (قونية) التركية. وكان والده (بهاء الدين ولد) الملقب بسلطان العلماء؛ من خيرة رجال العلم والأدب، وزعيم الطائفة المنورة في زمانه. رحل هذا العالم ومعه أبنه جلال الدين إلى الديار الحجازية. . ومن ثم رجع إلى مدينة (قونية) حيث أستقر فيها. ولقي أثناء إقامته هناك حظوة عند الأمير السلجوقي علاء الدين كيقباد توفى الشيخ بهاء الدين سنة ٦٢٨ هـ وكان قد لقن ولده العلوم الظاهرية.

ورأى جلال الدين بعد وفاة أبيه أن يسعى لإكمال دراسته وإتمام ثقافته، فاتصل بالسيد برهان الدين الترمذي - من تلامذة والده - فدرس عليه العلوم الباطنية، وقد نال إعجابه. فما كان من السيد الترمذي إلا أن جعله (مريداً) له

وتعد سنة ١٢٤٤م بداية عهد جديد في حياة جلال الدين الرومي، فقد التقى بالشيخ شمس الدين التبريزي المتصوف المعروف، فانصرف معه إلى الحياة التصوفية وبدأ منذ ذلك اليوم. ينظم القصائد الجياد في الشعر التصوفي حتى غدا شاعرا يشار إليه بالبنان، وقد خلف مؤلفات قيمة ترجمت إلى لغات كثيرة، نذكر منها (الديوان الكبير) الذي اشتمل على منظومات رباعية بديعة وأشعار رقيقة في الغزل. و (المثنوي) وقد حاز إعجاب الجمهور، ونال استحسان الأندية الثقافية. فأقدم العلماء على درسه وترجمته إلى لغات مختلفة. ويتضمن هذا الكتاب قصصاً وروايات رمزية، ونصائح وإرشادات دينية قيمة. ويحتوي كذلك على شرح المذهب الصوفي في محبة الله. . .

وقد جاء الكتاب بأسلوب قصصي بديع تجلى فيه الأدب الرفيع بأبهى جماله. وكان جلال الدين قد نظم أشعاره

باللغة الفارسية باستثناء بعض المقطعات التركية وهو مع ذلك لا ينفي كونه تركيا خالصاً إذ يقول:

(أصلم توركست اكرجه هندو كويم)

بمعنى: أنني من الأصل التركي وإن اخترت الفارسية لغة

وهو يعد بحق مؤسس الطريقة الجلالية التي سميت فيما بعد بالطريقة المولوية. وتوسعت هذه الطريقة على يد ولده النجيب الموسوم ب (سلطان ولد) الذي تمكن من نشر لوائها فوق سماء البلاد النائية، فتفرعت الطريقة إلى فروع تغلغلت جذورها في داخل الأقطار العراقية والسورية والمصرية، وانتشرت مبادئها كذلك في بلاد أذربيجان الشمالية

ولهذه الطريقة أثر عظيم في سير الأدب التركي. فقد أخذ الشعراء الأتراك يتقربون إلى شيوخها ويعتنقون تقاليد الطريقة وشعائرها المعروفة، فظهر لون من الأدب ينبغي تسميته بالأدب المولوي الذي أصبح فيما بعد يسمى بأدب التكايا، وذلك نتيجة تنوع الطرائق الصوفية وانتشارها في طول البلاد وعرضها هذه نبذة مختصرة عن حياة الشاعر جلال الدين الرومي وعن أثره في الأدب التركي. وهناك شعراء كثيرون ممن عاشوا في هذه العهود أمثال الخوارزمي

والجندي وسليمان باقر وميرحيدر ولطفي وأميري وحسين بايقرا وعلي شيرنوائي والقاضي وبرهان الدين وضرير الأرضرومي وحبيبي وخطائي وغيرهم من شعراء الترك، إن أردنا الاستفاضة في دراستهم في هذا المقام لطال بنا المقال. وخرج عما سميناه بالنظرات وإذا راعيتا جانب الاختصار وتجانبنا التفصيل. . .

وهنا نكون قد أعطينا للقارئ صورة مختصرة للأدوار التاريخية التي مر بها الأدب التركي منذ نشأته حتى أوائل العهد العثماني. وقد رأينا فيها أن الأدب التركي في هذه الفترات كان يكتنفه شئ من الغموض، بحيث يتعذر معه الوصول إلى كشف خفاياه وإظهار مجاهلة، وذلك لافتقارنا الشديد إلى المصادر التاريخية القديمة التي ترشدنا إلى معالم هذا الأدب في عصوره المظلمة.

فتاة الصحراء

رآها اليوم مرة في صحراء فلسطين فاحبها وتزوجها، ونقلها من تلك الصحراء المقفرة الهادئة، من وطنها العزيز إلى وطنه استنبول، إلى ضوضاء المدن وجلبتها.

عاش الزوج سنين طويلة في البلاد النائية، في الأماكن البعيدة عن وطنه، ثم عاد ومعه كنز حبه، تلك الفتاة التي تشبه زهرة ذابلة، والتي نشأت وترعرعت في الصحراء بجانب نخلة عارية وفوق رمال حارة، عاد بها إلى استنبول تلك البلدة العظيمة التي تجمع أصنافاً من الناس وأنواع من البشر، وتعج بمن فيها من السكان. أراد أن يجد لها في استنبول العظيمة مكانا تعيش فيه هانئة لا تذبل فتنصل ولا تجف فتسقط.

كان متوسط الحال، فهو لا يستطيع أن يقدم إليها في بلد كاستنبول حياة صحراوية، فلابد له ان يجد لها في أقاصي البلدة مكانا هادئا منزويا.

لم يتركا مكانا في أستا بنول ولا محلة إلا بحثا فيها عن دار فلم يجدا ما يوافقهما، وبالأحرى لم تجد الزوجة ما يلائمها

وما يلائم روحها الصحراوية، وكانت تظنانها إذا بحثت كثيرا في أنحاء البلدة العظيمة وجدت منزلا في روح الصحراء.

كلما زارا دارا كان ينظر الزوج بطرف عينه إلى زوجته ليرى في عينيها الصافيتين ما ينطبع فيهما من انقباض أو انشراح، إلا إنها كانت بعيدة الغور لا يظهر في عينيها ما يجول في قلبها. وكان زوجها أيضاً يود من صميم فؤاده أن يجد مكاناً ترى فيه فتاة الصحراء ولو شيئاً صغيراً يذكرها بالصحراء وطنها العزيز.

وفي يوم من الأيام نهضا صباحاً ليذهبا إلى دار قيل لهما إنها موافقة لرغائبهما وهي في محلة (السلطان أيوب) فذهبا إليها وتسلقا الهضبة التي قامت عليها تلك المحلة حتى بلغا الدار المقصودة، كانت الزوجة كعادتها لا تبدي اعتراضاً أبداً، بل كانت تمشي بجانبه كآلة صماء، وقد تعبت من البحث عن الدار التي تريدها في تلك البلدة التي لم تر أولها ولم تعرف آخرها.

كانت الدار صغيرة مشرفة على البحر فيها غرفتان وبهو وحديقة صغيرة، وكانت فتاة الصحراء تنظر إلى كل ذلك بفتور وملل فإذا بشيء يعلق به نظرها، لقد لمعت أمام عينيها

شمس الصحراء: هناك في الحديقة الصغيرة شجرة نخل، نعمانها صغيرة هزيلة، ولكنها كانت كافية لأن تمثل لها وطنها العزيز. لقد أثر منظر تلك الشجرة في فتاة الصحراء تأثيراً عظيماً، وأعطى روحها حرارة شمس لطيفة أجرت الدم الذي جمد في عروقها منذ فارقت صحراءها، وفتحت تلك الشجرة الطريق بين عينيها وبين الصحراء النائية عنها: فرأت أباها وأمها واخوتها، وعلى قيد غلوة منهم رأت جملها الذي يغمض عينيه السوداوين الكبيرتين أمام الشمس وهو يمد عنقه إلى الأمام.

لقد جاءتها هذه الشجرة بالصحراء، الصحراء العزيزة عليها، وبكل شيء قد تركته هناك، وألقته في أحضانها فكأنها بجانبه تلامسه ويلامسها.

نظرت إلى زوجها بعينين يلمع فيهما بريق السعادة لأول مرة بعد عدة شهور، كانت تلك النظرة تفيد معنى: إنني وجدت مبتغاي، وإني هنا، هنا فقط أستطيع أن أعيش بجانب هذه النخلة الصغيرة.

لقد حلت تلك الدار المشرفة على مياه الخليج من قلب المرأة محلاً رفيعاً، فأحبتها بعد زوجها، بقدر حياتها، بقدر وطنها. نزلا في الدار وعاشا فيها سنة طويلة.

كانت تعيش هنا بعيدة عن الناس لا تخرج لزيارة أحد كائناً من كأن، بعيدة عن الحياة الغريبة، عن الوجوه الغريبة، في تلك البلدة الغريبة.

لقد زارتها جاراتها يوماً، فلما رأينها لا تبتدئ معهن خطاباً ولا ترد عليهن جواباً إلا بنظراتها الفاترة الحزينة التي تطلب بها الرحمة والشفقة، ذهبن في الحديث عنها مذاهب شتى كل واحدة ترى فيها رأيا، فلما علمن أن بينها وبينهن حاجزاً من الاختلاف في اللغة يمنعها من الاتصال بهن تألمن لها أشد الألم، ثم أخذت تلك الرحمة تستحيل إلى سخرية واستهزاء.

إن أهل المدن فطروا على أن يعدوا أهل الصحراء دونهم في كل شيء، وهكذا كان شأن نساء تلك المحلة، كن يستهزئن بالمرأة المسكينة، وكن يضحكن منها ويقهقهن، لأنها لا تفهم ما يقلنه من الكلمات فيها، وكن يجدن في ذلك لذة عظيمة كما يجد الأولاد القساة لذة في تعذيب الحيوان الذي لا حول

له ولا قوة، فشعرت فتاة الصحراء بذكائها الفطري أنهن كن يضحكن منها، فنفرت منهم ولم تعد تقابلهن.

لقد نسى نساء الحي وجود فتاة الصحراء بينهن، عدا عجوز دردبيس كانت تتردد على نساء الحي فتقص عليهن أحاديثها وجدالها مع كنتها، وتقلق راحتهن بتلك الأحاديث التي لا تعرف الانتهاء، حتى مللنها وسئمن ثرثرتها، فكانت تتردد على فتاة الصحراء فتجلس أمامها وتبدأ حديثها باسم الله وتبقى مدة طويلة تتكلم وتتكلم، ثم تختم القصة بدموع ترسلها من عينيها وتغادر البيت وهي تقول للمرأة التي لم تفهم منها غير دموعها: (إلى الملتقى يا بنيتي لقد أزعجتك بثرثرتي، شرفينا).

كانت العجوز لا تني عن زيارة فتاة الصحراء، وأخيرا شعرت إنها وحدها التي كانت تتكلم طيلة هذه الأيام، فقالت لفتاة الصحراء: ما لك لا تتكلمين يا ابنتاه؟ أبكماء أنت أم ماذا؟

فلما رأت فتاة الصحراء لم تجبها إلا بابتسامة مبهمة ولم تقل إلا برأسها نهضت وغادرت المكان على إلا تعود إليه مرة أخرى.

لم يبق من يطرق باب الدار الصغيرة، ولم يبق من يوقظ شمس الصحراء النائمة هنا من أحلامها، إلا إنها أحياناً كانت تنزل عند إرادة زوجها ورغبته وتذهب معه إلى النزهة، ولكنها كانت تعود إلى بيتها وهي مريضة قلباً لا جسماً، لقد كانت تشبه طائراً صغيراً فارق عشه ليطير، فوهى جناحاه ووقع على الأرض.

إنها لا تكون سعيدة إلا إذا كانت في منزلها منفردة بنفسها أمام شجرة النخل مستغرقة في رؤياها، وفي ذلك الحين فقط تظهر الشمس لعينيها؛ إنها حين تجلس تلك الجلسة، في تلك الساحة التي يبدو لها منها وجه السماء، والتي تشبه في نظرها قصرا من القصور تنسى ذلك الدور الأخير من أدوار حياتها، وتعود بخيالها في غفلة لذيذة إلى تلك البحار الرملية التي تجري فيها بقوة هائلة س يول أشعة شمس بلادها فتغمرها غمرا، وتملأ أرجاءها ونواحيها.

إنها في ذلك الحين حين تجلس إلى تلك النخلة التي تشبهها في محبة الوطن، وتشاركها الأسف والحزن، وترتسم على شفتيها ابتسامة حزن يائسة، لوقوعها بعيدة عن وطنها وعن شمس وطنها وعن سماء وطنها، تجمع تلك الهضاب

والتلال التي أمامها بعضها إلى بعض، حتى يغيب عن نظرها ذلك البحر الذي أمامها، وترى أشعة الشمس تغمر تلك الصحراء، وتبصر ألوف النخيل المنتشرة فيها يسلم بعضها على بعض من بعيد بأغصانها الخضراء العالية الرءوس فإذا رسمت في خيالها هذه الصورة الجميلة، وأتقنت صنعها كل الإتقان، وأعطتها من حسن تمثيلها حياة حقيقية، خيل إليها إن أباها وأمها وأخوتها وجملها ذا العينين الواسعتين السوداوين أمامها وتحت نظرها، فخفق قلبها لهم، وحاولت أن تهجم عليهم مسلمة معانقة.

وربما ذهبت بعض الأحيان في النهار إلى الحديقة ووضعت حصيرا تحت النخلة التي لا ترد أغصانها عنها أشعة الشمس واضطجعت عليها، ورفعت عينيها إلى السماء، وسافرت بفكرها إلى أقصى حدود الخيال.

كانت ترى قطع السحب تمشي في السماء على غير انتظام، فهي إذن أما ذاهبة نحو قومها، أو آتية من عندهم؛ فالسحب إذن قد رأت قومها أو ستراهم، فكانت تبتسم لهؤلاء السائحات وتسألهن: ألم يجئنها بسلام من قومها

وصحرائها؟ أو تسألهن أن يتركن لها في أجنحتهن مكانا صغيرا يسع خبرا عنها لقومها وأهلها.

في أعقاب خريف السنة التي قضتها في تلك الدار رأت الطيور تطير أسرابا أسراباً في السماء، فاهتمت لذلك وسألت زوجها عنها فقال لها: (إنها ذاهبة إلى بعيد! إلى البلاد الحارة). فقالت في نفسها إنها ستمر إذن بوطنها العزيز. فكانت تضطجع تحت نخلتها وتغني بصوت حزين أناشيد قومها وألحانهم الشجية، مضمنة ذلك شوقها الشديد، متوهمة إن تلك الطيور ستقفل راجعة إليها تحمل إليها أجوبة تلك الألحان والأشواق.

جاء الشتاء بخيله ورجله، وأصبحت فتاة الصحراء لا تقدر على الجلوس تحت نخلتها، والتمتع بظلها، وشم رائحتها، فأخذها من اليأس ما زاد في الأم نفسها، وأصبحت تقعد بجانب نافذتها ساعات فراغها من عمل المنزل غارقة في بحر من الآلام والأفكار، فما يدري ما الذي كان يشغل خيالها ويقلق بالها في ذلك الحين، أمنظر النخلة التي كانت تخشى عليها من البرد القارس، والهواء العاصف؟ أم انتظار الطيور

تقبل عليها من ناحية من نواحي السماء المستورة بالغيوم، تنقل إليها أخبار أهلها ووطنها؟

كانت فتاة الصحراء كلما مضى يوم من الشتاء هزلت وضعفت، وأخذ نور عينيها يخبو تدريجا. فلم يخف ذلك على زوجها، فقال لها: (ما بك؟ أراك تخفين عني شيئا يمضك ويؤلم، لقد سئمت الوحدة وتشوقت لرؤية أهلك وصحرائك) كانت تنكر ذلك، ولكنها كانت شوق زائد إلى رؤيتهم، إنها اشتاقت إلى الصحراء، إلى شمسها، إلى جوها الصافي، إلى نخيلها، إلى والديها وأخواتها، إلى جملها، أجل! أشتقات إلى كل هؤلاء، ولكنها كانت كالأطفال تنكر شوقها وتصر على الإنكار، ومع هذا كانت تدير وجهها تحت تمثال صحرائها، إلا وهو نخلتها وتنظر إليها بحزن عميق.

اقبل الربيع:

علمت ذلك من زوجها فابتهجت وفرحت: جاء الربيع، كانت تظن انه إذا جاء الربيع. أتاها بتذكار جميل من أهلها ومن قومها، ولكن هيهات، جاءها الربيع بالمصيبة الكبرى: ستباع الدار، وهما مضطران إلى النزوح عنها إلى غيرها.

الدار يبيعها صاحبها: ستفارق إذن فتاة الصحراء حلمها الجميل، ستفارق النخلة، خطر لها خاطر فجائي وهو أن تأخذ معها شجرتها إلى الدار التي ستسكنها، ذكرت لزوجها رأيها فوافقها على ذلك، وقرراً أن يأخذا معهما النخلة سلوتها الوحيدة.

رحلا إلى دار صغيرة مظلمة في حي فقير مظلم فصنعا للشجيرة محلا أمام النافذة ووضعاها فيه وربطاها إلى حديد النافذة.

لقد قنعت فتاة الصحراء بهذه الدار الصغيرة المظلمة، ما كانت ترى في هذه الدر السماء الصافية، ولا الشمس المشرقة، ولا القمر الزاهي، ولا النجوم الزاهرة، ولا الدور الشاهقة، لكنها كانت ترى نخلتها المحبوبة فيسكن قلبها لرؤيتها، فحياتها منوطة بها. تجلس دائما بقرب النافذة واضعة رأسها على يدها، وتنظر إلى رفيقة وطنها بقلب أضناه الشوق وبرحت به الذكرى. ولكن النخلة كانت تذوى كطفل أخذ غصبا من حضن أمه، وفتاة الصحراء تذبل بذبولها كشجيرة انتزعت من مغرسها، فاستحكم الذبول في الاثنتين، فكان يظن الناظر إليهما أن سراج حياتيهما ينطفئ تدريجا.

نهضت يوما من فراشها وذهبت كعادتها إلى نخلتها، ولكنها تراجعت إلى الوراء دهشة، ماذا ترى؟ رأت نخلتها العزيز رفيقتها ومؤنستها قد انكسرت من وسطها حيث الرباط، وسقط رأسها إلى الأرض، فهدت تلك المصيبة من قوة الفتاة، فجلست بجانبها وذرفت دموعا غزيرة خرجت من أعماق قلبها المحطم لفراق الوطن والأهل.

عاد زوجها مساء فألفاها على تلك الحالة باكية حزينة. فسألها قائلا: (ما بك؟ أعلميني أسباب حزنك وكدرك، ما الذي يبكيك؟) فاعترفت لأول مرة قائلة: (لنذهب! لنذهب إلى هناك!) وأشارت بيدها إلى بعيد، إلى ديار أهلها وقومها.

عادت الطيور ولم تأتها بخبر من أهلها، ولكن ما الذي يهمها من ذلك ألان، إنها ذاهبة بنفسها إلى الصحراء، إلى الوطن الذي طالما فكرت فيه أضناها بعدها عنه، وذرفت لذلك دموعا غزيرة. . . لقد ذهبا إلى الصحراء ومضى على ذهابهما زمن طويل. . . فليت شعري، أفتاة الصحراء لا تزال تجلس تحت ظل أشجار النخيل، تغني أناشيدها القومية فرحة مسرورة بالوطن العزيز الذي كانت ترى بجانبه جمال الآستانة قبحا، وماءها ملحا، وهواءها رديئا، وجوها وبيئا،

وشمسها قاتمة، ونجومها مغمضة نائمة، أم هي نائمة نوما أبديا تحت أطباق الثرى، وحيدة منفردة وظلال أشجاب النخيل تبكي عليها؟

المعلمة الصغيرة

ركبت عربة الترام ولم يكن فيها غير السائق الذي كان مغمضاً عينيه يستريح قليلاً من عناء أربع عشرة ساعة، أما بائع التذاكر فكان جالساً في المكان المعد للسيدات يقرأ جريدته على ذلك الضوء الشاحب الهزيل الذي كان ينفذ من زجاج ذلك المصباح الأغبر، وليس يعلم إلا الله كم مرة أخرجها من جيبه وأعادها إليه وكأن دخولي إلى تلك العربة وهي آخر العربات في ذلك الوقت من تلك الليلة الشاتية نفخ فيها حياة بعد أن كاد يقتلها الإعياء، فقد من نومه وفتح عينيه المغمضتين، وأبعد بائع التذاكر الصحيفة عن وجهه وصعد بصره في كأنه يقول:

وهل بقي من راكب بعد أن مضى الهزيع الأول من هذا الليل الممطر؟. ثم قام الاثنان ونظرا إلى الخارج كأنهما يريدان أن يريا المطر الذي كان يسفع زجاج العربة بشدة، وعاد في الحال كل إلى مكانه لأن وقت الحركة لم يحن بعد، فأغمض السائق عينيه، ورفع بائع التذاكر جريدته إلى وجهه وأخذ يقرأ.

جلست وفي نفسي أن انتظاري سيطول، لقد كان منتظر العربة مؤلماً جداً، كانت أطرافها ملوثة بالطين، وكان زجاجها مستوراً بطبقة من مياه الأمطار التي كانت تسيل عليها، وكان نورها ضئيلاً، وهي واقفة تحت سيل الأمطار الذي لم ينقطع منذ ساعات وقفة حزن وملل تنتظر الوقت لتسير. كم كان مؤلماً منظر الخيل وهي تنتظر بفارغ الصبر العودة في تلك الساعة إلى اصطبلها الدافئ، ومنظر السائق الذي هد التعب جسمه وغلبه النعاس فلا يكاد يرفع رأسه، ومنظر بائع التذاكر الذي كان يود النزوح ولو بخياله عن خط الترام الذي هو كل ما تراه عينه في كل يوم منذ الصباح حتى المساء، فهو يتلهى بالنظر إلى جريدته كلما سنحت له الفرصة. .

كنت وأنا أنظر إلى المياه التي كانت تسح من مظلتي التي ابتلت من المطر الغزير فتؤلف دوائر، أقول في نفسي: (أن هذه العربة التي كادت قطعها تنفصل عن بعضها لكثرة ما حملت من الناس لأراحتهم، وهذين الحيوانين اللذين أكل عليهما الدهر وشرب، وهذين الرجلين البائسين، وهذا الخط الحديدي الذي يفسح لنفسه الطريق بين الأوحال من

(الجسر) حتى (جنبرلي طائش). كل هؤلاء مكلفون في هذا الليل المدلهم بحملي وحدي بأجرة لا تزيد على قرش واحد).

دق الجرس فجأة ففتح السائق عينيه ونهض يتمطى، ونظر آلي ما حوله حيران كأنه يعجب من وجود عمل يجب القيام به في ذلك الوقت من الليل لإتمام عمل النهار. ففرك يديه وسار. فتح الباب فهجمت منه موجة هوائية باردة، ثم خرج وأغلقه خلفه وبقي وحده معرضاً لموجات الهواء التي كانت تلطم عربة الترام.

انتفضت تلك العربة الكبيرة الثقيلة وتمطت واهتزت كأنها هي أيضاً كانت نائمة. وتحركت بحركة مزعجة، وأرسلت أصواتاً كأنها شكوى عميقة يثيرها اضطراب دائم، ثم سارت وهي تحمل مع اضطراب ألواحها الزجاجية جسمين مضطربين وهما بائع التذاكر وزبونها الوحيد.

تقدم بائع التذاكر من الراكب الوحيد وسلمه تذكرته وأستلم نقوده من غير أن ينبسا ببنت شفة، ثم عاد بائع التذاكر إلى جريدته يقرؤها، وعاد الراكب إلى ما أجتمع تحت مظلته من المياه ينظر أليها.

في تلك الأثناء كثر اهتزاز العربة. وأخرجت أصواتاً مزعجة كأن أسنان تلك العربة. ذلك المخلوق البطيء، تعض الخط الحديدي بشدة. مظهرة ألمها واستياءها، وصلنا إلى (سركه جي) فلم ير بائع التذاكر حاجة إلى وقوف العربة، وهي آخر العربات حركة، لوثوقه أنه لا يوجد راكب في مثل هذا الظلام البهيم، فصفر معلناً الحركة، ولكن السائق صاح قائلاً:

- راكب!

وقفت العربة فقلت في نفسي (شيء مؤلم! كم كنت مستريحاً وحدي!) ثم فتح الباب فما كدت أبصر الداخل حتى تغير رأيي، فقد كان الراكب الجديد فتاة شابة قد ابتلت ثيابها من المطر لأنه كان ينزل عليها فلا ترده عنها مظلتا الصغيرة، كانت صفراء الوجه من البرد، وكانت شفتاها متقلصتين وأسنانها مصطكة، وعليها ثوب أبيض فوقه معطف بني اللون لا يشك الناظر أليه في أن ذلك الشتاء لم يكن أول شتاء مر عليه. فجعلت بهذه الهيئة الفقيرة المؤلمة في الجهة المقابلة لي، وفي الحال مدت يدها الجامدة من البرد في قفازها الذي امتدت منه أطراف أصابعها والمحيط بأسلاك بيضاء، إلى جيب معطفها لتخرج منه حقيبة النقود،

فأخرجت منديلاً أبيض ثم حقيبة تقادم عهدها وحال لونها لكثرة الاستعمال وتمزقت جوانبها، فأخذت تعالجها لتفتحها فلم تقدر كأن قفلها قد تعطل. فعالجتها المسكينة كثيراً، والحقيبة مصرة على ألا تنفتح، وبائع التذاكر واقف أمامها يهتز ذات اليمين وذات الشمال من حركة التزام وجريدته تحت إبطه، ينتظر النقود منها، لقد ملك النظر إلى الماء المتجمع أمامي من المظلة فرفعت رأسي أخذت أنظر أليها نظري إلى شيء جديد كانت هي على ما يظهر من حالها متألمة من عدم تمكنها من فتح الحقيبة بسرعة لأنها كانت تعالجها كمن يود كسرها، وأخيراً فتحت الحقيبة فأدخلت إصبعها فيها وأخذت تطوف بهما في جوانبها على ضوء العربة الضئيل.

لقد شعرت وأنا في مكان أن الحقيبة لا تحوى أشياء كثيرة يحتاج المرء معها إلى كثرة البحث والتنقيب. أدخلت يدها وهي في القفاز الممزق حتى غابت في الحقيبة وأخذت تبحث عن شيء صغير مختبئ هناك.

بعد بحث طويل بين أصابعها شيء صغير وهي تخرجه من الحقيبة فناولته إلى بائع التذاكر الذي لم يشأ أن يقطع لها التذكرة قبل أن يستلم النقود. . . . فتنفست الصعداء كأنها

خرجت من مهمة صعبة وتمكنت من مقعدها كل التمكن. ثم رفعت عينها اللتين لم أستطع أن أعرف لونها تماماً.

لقد كانت تارة تنظر والعربة سائرة إلى قطع الجلود المتدلية من المسامير التي في سقف العربة، وآونة إلى المطر الذي يسمح من زاوية العربة، ثم إلى ما فوق رأسها لتعلم أين مكانها منه، وطوراً تقارب بين جفنيها وتتأمل في ضوء المصباح الضئيل، إلا أنها ضجرت من كل هذه الأشياء وسئمتها، فمسحت بظهر يدها زجاج العربة المبتل ونظرت إلى الشارع، لترى أقرب مكان نزولها أم لا يزال بعيداً؟ إلا أنها لم تر غير أشعة المصابيح الضئيلة التي تشع من الحوانيت القليلة في هذه الليلة الباردة فترقص أشعتها فوق الطين المتراكم في الشوارع.

وأخيراً نظرت إلى نظرة عجلي كأنني آخر ما يمكن أن يعرض على نظرها من الأشياء التي حولها. ولكنها وجدتني كبقية الأشياء التي استعرضتها أمام ناظريها ولم تجد فيها ما يوجب العناية، فاعترضت عني واستندت على مسند المقعد، ومدت رجليها وفيهما حذاءان عتيقان قد زر أحدهما وتمزقت عروة الثاني ولكنهما كانا جميلين، ووضعت إحدى رجليهما

على الأخرى، ثم أصلحت قبعتها أسندت رأسها إلى ما خلفها وأخذت تنتظر.

هل كانت جميلة؟ لا أدري! ولكنها مع ذلك كانت مركبة من أعضاء صغيرة، حتى ليخيل للناظر إليها أن رجلاً من المولعين بالأشياء الدقيقة قد صاغها هذه الصياغة وركبها هذا التركيب، فهي مليحة بعينها الصغيرتين، وفمها الرقيق، وأنفها الدقيق، ووجهها المخروط، ولم يكن في ذلك الجسم المركب من تلك الأعضاء الصغيرة طويل غير قامتها، فقد كان طولها لا يتفق وصغر أعضائها، ولكنها مع ذلك لم تكن خالية من الملاحة. لقد كنت أشعر بشيء غريب لوجودي في تلك الليلة الشاتية في تلك العربة بجانب تلك الفتاة منفردين، كنت أشعر بلذة غامضة كالتي يتوهمها الإنسان عند قراءة شعر لا يفهم معناه. وفي تلك الأثناء رفعت رأسها بسرعة ومسحت زجاج النافذة ونظرت طويلاً نظرة تدل على ضجرها من التأخر. وكنا في ذلك الوقت نسير في محلة (جيفته حاووضلر) وكنت أقول في نفسي (أين تذهب هذه الفتاة في مثل هذا الوقت في مثل هذه الحالة الجوية؟). ثم ارتدت مسرعة عن النافذة، وانحنت قليلاً كأنها تريد أن تكلم

بائع التذاكر الذي كان مغطياً وجهه بجريدته يغالب النوم ويغالبه، ولكنها لم تجرؤ أن تكلمه فنظرت إلى نظرة تدل دلالة واضحة على أنها تريد أن تسألني عن شيء، فنظرت إليها نظرة أسألها فيها عما تريد، إلا أنها بصورة من الصور لم تجد قدرة على الكلام فسكتت، ونهضت على رجليها ونظرت ثانية من النافذة، وفي هذه المرة ارتدت مصفرة فقلت لها:

- قالت بصوت رقيق يشبه جسمها الصغير بلهجة تدل على الحشمة والوقار:

- عفواً يا سيدي، فهل (الجسر) بعيد عنا؟

- فقلت:

- الجسر؟ أنتِ مخطئة أيتها الآنسة، إن هذه العربة تسير بنا إلى (آق سراي)

- فنظرت إلى وجهي نظرة جامدة كأنها لم تفهم شيئاً، وبعد أن وقفت مدة على هذه الصورة لا تجد في نفسها قوة على الاستيضاح قالت:

- إذن نحن الآن لا نسير نحو (الجسر)؟

- لفظت جملتها هذه بصورة تدل على فزع شديد علمت منه أنها ارتكبت خطأ، فداخلتني عليها شفقة وقلت:

- أنا آسف جداً يا آنسة، أنت تريدين الذهاب إلى (الجسر) إلا أنك ركبت عربة تسير عنه لا إليه، وقد أوقعك في هذا الخطأ ظلام الليل ودهشة المطر.

- كانت تسمع كلامي والبكاء يكاد يغلبها على عينها وتقول بصوت مسموع: لقد تأخرت كثيراً. ثم قالت بصوت يخالطه شيء من الأمل:

- إذن سأعود أدراجي من أول موقف.

- لقد وصلنا إلى موقف (صالقم سكود) فقلت لها:

- إنك مضطرة إلى الرجوع راجلة، فهذه آخر عربة ولا أظن أنك تجدين عربة في هذا المطر.

- فلما سمعت ذلك اضطربت اضطراباً عظيماً، وفي ذلك الوقت استيقظ بائع التذاكر واقترب منا يشاركنا في الحديث، ثم قال مبرئاً نفسه من التبعة:

- لماذا لم تذكري لنا المحل الذي تريدين أن تذهبي اليه؟. فلم تجد تلك المسكينة حاجة إلى الجواب، فنظرت إلي نظرة حائرة تطلب بها المد والمعونة، وقالت:

- لطفاً يا إلهي، في مثل هذه الساعة، في مثل هذا المطر، وفي مثل هذه الأزقةالمظلمة الخالية كيف أستطيع السير وحدي؟.

- لم أجد حاجة لا تخاذ قرار بعد ذلك في هذا الشأن، فقلت لها

- أيتها الآنسة، هل لك أن تقبلي مرافقتي حتى الجسر؟.

- فنظرت إليه بدهشة وصاحت:

- كيف ذلك يا سيدي؟ كيف تعود لأجلي في هذا الهواء؟

- وكيف أستطيع أن أقبل هذه النصيحة؟. .

- على أنه لم يكن أحسن من هذا الحل، لأن السائق كان بفارغ الصبر ينتظر الحركة، وبائع التذاكر ينتظر أن نعطى نتيجة حاسمة فقلت لها مصراً:

- أنت لا تقدرين على العودة منفردة في مثل هذا الوقت، ومن هذا المكان، مع أني أتمكن من أن أركب عربة وأعود من الجسر، وذلك يسير علي.

- فنظرت إلي عند ذلك نظرة فاحصة، وبتلك النظرة علمت صفاء نيتي وصدق عزمي فأظهرت الاطمئنان وقبلت مرافقتي قائلة:

- سمعاً وطاعة يا سيدي، لقد أظهرت إنسانية نبيلة وعطفاً كريماً، وأنا أقبلها مع الشكر.

- فتح بائع التذاكر الباب ليشرح للسائق القصة، فنزلنا نحن من الباب الثاني، وتحركت العربة في الظلام كأنها خيال ذو عينين صفراويتين؛ كان المطر إذ ذاك إلا أنه كان متوالياً، ففتحت الفتاة مظلتها، فلما تأملتها وجدتها ممزقة الأطراف، وفتحت أنا أيضاً مظلتي وأخذنا نمشي متكاتفين بقدر ما تسمح لنا المظلتان. كانت في ذلك الظلام الدامس قي تلك الشوارع الخالية تشعر أنها محتاجة إلى الاقتراب مني بدافع غريب مجهول المصدر يدفعها إلى ذلك، وكنت أنا أشعر بلذة منشؤها حمايتي لفتاة في مثل هذا الوقت. على تلك الحال كنا نمشي صامتين لا نتكلم، وكانت توسع خطاها لئلا تضطرني إلى المشي البطيء.

- كنت وأنا في الترام في شك من جمال هذه الفتاة ذات القامة الهيفاء، ولكنها الآن في الظلام كانت تتراءى لي جميلة.

- إن هذه المصادفة غريبة جداً، وأظن أن تلك الفتاة التي رأيتها لأول مرة في حياتي وبسطت عليها ظل حمايتي لو

كانت غير جميلة لكانت اللذة التي أشعر بها الآن ناقصة كنت أقول وأنا سائر بجانبها يا لجمال عينيها الصغيرتين.

لم تكلمني حتى وصلنا إلى (سركه جي) حيث موقف الترام هناك فقالت:

هنا كنت انتظر يا سيدي، وفي كل يوم كنت اركب الترام هنا، ولا ادري كيف أخطأت في هذه الليلة وركبت الترام الذاهب عن (الجسر) لا إليه؟ ولا ادري كيف لم انتبه لذلك؟ كان السبب كما قلت يا سيدي الظلام الحالك والمطر الكثير الذي ادهشني، لو تدري يا سيدي كم انتظرت هنا تحت سيول الأمطار معرضة للهواء الذي يعصف بشدة، وكم لقيت من الانتظار، لقد ظننت أن غشاء اسود قد سترعيني، لا اقدر أن اصف لك اضطرابي حينما علمت منك أنها آخر عربة تسير في الليل، آه لقد تأخرت كثيرا. - لقد كانت كأنها في حمية عن الكلام ثم تركتها فذهبت فيه مذهبا بعيدا وقالت:

- غريب جدا أن المصادفات في بعض الأحيان تظهر للمرء عجائبها وغرائبها كأنها تسخر منه، لقد فاتني القطار أيضا في (مقرى كوى) لذلك تأخرت حتى ذلك الوقت لأني انتظرت

هناك طويلا، ولم يكن يخطر لي على بال أنى هنا سأركب في آخر عربة تسير في الليل وفي غير الجهة التي اقصدها.

فسألتها:

- إذن أنت آتية من مقرى كوي؟

أخذت الكلفة ترتفع بيننا شيئا فشيئا لان وجودي بجانبها طول المسافة التي قطعناها أظهرها على حسن نيتي وجعل لي في قلب هذه الفتاة الشابة موقعا حسنا فأجابتني على سؤالي جواباً طويلا مفصلا، قالت:

أجل يا سيدي إني اذهب مرتين في الأسبوع إلى (مقرى كوي) لإعطاء درس خصوصي هناك لإحدى السيدات، اه يا سيدي! إن حياتي شقية جدا، محتم علي أن اشتغل من الصباح حتى المساء في جميع أنحاء هذا البلد الكبير، تصور المسافات التي اقطعها كل يوم: ذهبت اليوم صباحا إلى (طرابية) وعدت منها إلى (مقرى كوي) وأنت تعلم تباعد هذه المسافات وتنائي بعضها عن بعض. على هذه الصورة يجب أن اشتغل في أربعة أطراف البلد؛ فإذا كان الصيف احتملت كل ذلك، لان النهار طويل أتمكن فيه من تأدية دروسي من غير كبير مشقة ولا عناء، أما في الشتاء فالمشقة فوق

الطاقة وخاصة في مثل هذه الأيام عند شدة النوء وكلب الشتاء، لقد غلبني اليوم البكاء أكثر من مرة، ولا أتذكر أني تأخرت مثل هذه الليلة، وما الذي أقوله الآن في البيت لوالدي؟

وهنا انقطعت عن الكلام ولم تجسر على إتمام جملتها، لأنها فجأة شعرت بخجل من سردها تاريخ حياتها، ولما لم تجد في نفسها القوة على إتمام كلامها غيرت مجرى الكلام وقالت وهي تنفض ذراعها المبتلة من المطر.

- لقد ابتلت ثيابي.

فقلت لها:

- إن مظلتك صغيرة فاطويها وخذي مظلتي فهي تحفظك من المطر.

ولكنها لم تقبل وقالت:

- أشكرك يا سيدي! لا أود أن تبتل ثيابك أكثر مما ابتلت، ألا يكفي ما تحملت حتى الآن من اجلي؟

أردت أن أعود بها إلى الحديث عن حياتها فقلت لها.

- إذن لك والد فقط يا آنسة؟

- نعم يا سيدي. ثم قالت:

- أضننا قد بلغنا الجسر؟

وسكتت كأنها لا تريد أن تبحث عن شيء أبدا، ولكنها لم تتمكن من ذلك لأنها كانت في حاجة إلى أن تتكلم عن نفسها وان تحدثني عن حياتها، اجل! بحاجة شديدة إلى ذلك، فقالت:

- فقدت والدتي منذ سنتين، ومنذ ذلك الوقت اضطررت إلى العمل الكثير. كانت والدتي في حياتها هي التي تشتغل لنا، فلما ماتت ورثت تلك الوظيفة عنها وانتقلت إلى بمرارتها والمها.

هل لك والدة يا سيدي؟

فأشرت لها برأسي أن نعم، على أنها ما كانت تنتظر مني جواباً، لأن سؤالها هذا كان مقدمة لما تريد أن تحدثني به فقالت:

- إن أكبر تغيير يطرأ على حياة المرء يبتدي من تاريخ وفاة امه، لقد كنت حتى وفاتها اجهل الحياة وما فيها، كنت في مدرسة داخلية لا اعرف من الحياة إلا قدر ما يقع عليه نظري بين جدرانها السامقة، لا اعرف شيئا ولا اعرف أحدا أبدا، فلما توفيت والدتي واضطررت إلى ترك المدرسة والبقاء

في البيت علمت أنني اجهل كل شي حتى أبى، أما الآن فقد عرفت الحياة جيدا، واختبرت أبناء آدم ظواهرهم وبواطنهم. لقد علمت كل ذلك، ولم يكد يمضي على دخولي في معترك الحياة أكثر من شهر. ولكن من المؤلم جدا أن يقف المرء على تلك الحقائق دفعة واحدة لان أعصابه تتزلزل بتلك الصدمة. لقد وصلنا إلى (الجسر) يا سيدي. أشكرك شكرا جزيلا، وهذه عربة هنا تقلني إلى البيت.

وهنا تهيأت لوداعي، ولكني رأيت أن المصادفات قد وقفتني على قصة حياة مؤلمة، فكنت أفكر في وسيلة أمد بها مرافقة تلك الفتاة حتى البيت، فقلت لها.

كلا أيتها الآنسة، إني سأرافقك حتى الجانب الآخر من (الجسر) لأني عدلت عن الرجوع إلى بيتي في مثل هذه الساعة وسأبيت بفندق هناك، فلم تعارضني بل اكتفت بتلك الإيضاحات وسرنا نقطع (الجسر) ونحن ساكتان.

كنا نمشي معا على أحد جانبي الطريق، وكنا نلاقي مشقة شديدة في إمساك مظلتينا بسبب ذلك الهواء الشديد البليل الذي كان يعصف من أحد جانبينا فيبلل ذلك الجانب. وفي تلك الأثناء أدارت نظرها فيما حولها وقالت:

- نعم إن بقاء الفتاة الشابة كل حياتها محرومة من عطف الوالدة وحنانها مصيبة ليست تضارعها مصيبة.

ثم استأنفت كلامها فقالت:

هل تدري يا سيدي ما الذي يقلق فكري أكثر من كل شي بعد هذا التأخر؟

كانت مضطربة تماما واضطرابها يزداد شيئا فشيئا، كانت تشعر أنها في حاجة إلى أن تقص على الرجل الذي لا تعرفه ولا يعرفها الناحية التي خفيت من نواحي حياتها.

فسألها بسكون قائلا:

- ما هو أيتها الآنسة ذلك الذي يقلقك؟

قالت والدي!. ثم سكتت قليلا ثم قالت:

- أراني لا اقدر أن اصف لك والدي وصفا دقيقا، لا ادري كيف تنظر إلى فتاة تشكو إليك من والدها لأول مرة رأيتها فيها، ولكنك بمرافقتك لي حتى هذا المكان اثبت لي طيبة قلبك وصفاء نيتك، وانك بحسن تلك النية وبصفاء ذلك القلب ستدرك سلامة الأسباب التي ساقتني إلى تلك الشكاية، أليس كذلك يا سيدي؟.

كان الهواء يعصف بشدة، فلم نقدر أن نضبط مظلتينا ونقاوم الهواء الشديد فأغلقناهما وأخذنا نمشي غير مبالين بالمطر القليل الذي ينزل، بل خففنا السير لندرك وقتا كافيا للتكلم معا، وقد اقترب كلانا من الآخر، وكنا نسير متلاصقين بقلبينا وجسمينا كأننا قد تعارفنا منذ سنين لا منذ دقائق.

كانت هي في حاجة إلى أن تشكو إلى همومها، اجل! كانت في حاجة شديدة جدا إلى أن تنشر كل ما خفي من نواحي حياتها، وتبسطه أمام ذلك الرجل الذي ربما كان اجتماعها به مصادفة واتفاقا أول اجتماع وآخره، فقالت.

- اعلم يا سيدي أنى الليلة ككل ليلة ساجد والدي سكران طافحا، وحينما يراني يستقبلني بكلمات الشتم والتحقير، وفي بعض الأحيان. . . ولم تتم جملتها كأنها رأت أنها قد اعترفت لي بأكثر مما يجب، لذلك قطعت كلامها بسرعة وأتمت جملتها التي شرعت فيها بصورة أخرى، فقالت:

- لا أذكر أن والدي عمل يوما ما عملا مثمرا يعود عليه وعلينا بربح؛ كان في شبابه صاحب مقهى صغير في (بك اوغلى)، وكان يأتي بمغنيات في الشتاء إلى قهوته، وكانت

والـدتي إحـدى أولئك المغنيـات، اشـتغلت عنـده ثـم تزوجهـا، وقـد علمـت هـذه التفصـيلات واحـدة بعـد أخـرى مصـادفة واتفاقـا، ولا ادري كيـف تـم الاتفـاق بين أبى وامي على الـزواج الذي كنت ثمرته، ولكن ظهوري في الحياة كان سببا لأمراض كثيرة أصابت والدتي ومصائب أخرى اضطرتها إلى ترك العمل وأرغمـت والـدي على تـرك المقهى. كانـت والـدتي موسـيقية بارعـة، فبعـد أن تركـت المسرح صـارت معلمـة تعطـي النسـاء دروسا في الموسيقى؛ وأنا اعرف والدتي وهي معلمة فقط، لـم تكـن تملـك دقيقـة مـن دقـائق حياتهـا، بـل كلهـا كانـت رهـن التعـب والشـقاء والتعلـيم والكـدح في سـبيل القـوت، حتـى اضطرت إلى وضعي في مدرسة داخلية، اخرج منها في الأسبوع مرة إلى البيت، أقول (البيت) وأنت تدرك بثاقب فكرك ما هو هـذا البيـت. كنـا نسـكن في غـرفتين في الـطابق الـرابع من بنـاء كبيـر عـال. كنـت إذا جئتهمـا في يـوم عطلـة أو في يـوم جمعـة وجدتهما بعيدين عن الحياة العـائلية كل البعد، فـاهرب منهما إلى المدرسة. وكيف يكون البيت إذا كان لا يطبخ فيه الطعام، ولا تغسل فيه ثياب، ولا يعمل فيه شي مما يعمل في البيوت؟ كانـت والـدتي تشـتغل بـلا انقطـاع لتحصـيل القـوت، وكـان

والدي بلا انقطاع يشرب الخمر، فهذان المخلوقان وان كانا متقاربين جسما يعيشان تحت سقف واحد، فقد كانا متباعدين كل البعد معني، وكنت أنا في سرور لأنني بعيدة عنهما، حتى أنى لم اكن أجد لهما في قلبي مكانا. استدعتني يوما مديرة المدرسة إليها وأخبرتني بوفاة والدتي ثم قالت: (إن المرء تصيبه في حياته مصائب جمة، فيجب أن يتلقاها بكل ثبات وصبر)، لم أجد في ذلك الوقت وفاة والدتي مصيبة كبيرة كما قالت المديرة، ولكني أصبحت احب والدتي بعد وفاتها، آه لو تعلم كم احبها الآن. . . . كم احبها!

سكتت هنا قليلا، وقد شعرت أن صدرها يعلو وينخفض من حسرة كامنة في أعماق قلبها، ثم قالت:

- منذ ذاك الوقت أصبحت الحياة على أضيق من سم الخياط. أخرجني والدي من المدرسة، واخذ يسوقني من مكان إلى مكان. اجل! اخذ يسوق فتاة في السادسة عشر من عمرها، لا تعرف من الحياة إلا ما رأته من نافذة المدرسة، إلى الأماكن التي كانت والدتها تعطي دروسا فيها لتقوم مقام أمها في تحصيل اللقمة! منذ ذاك الحين انتقلت إلى وظيفة السعي وراء كسب القوت. وأنا الآن أسعى بكل قواي وأعطي دروسا،

وكل يوم اقطع مسافات شاسعة متعبة، فمن (طرابية) إلى (مغري كوي)، ومن (اسكدار) إلى (بك اوغلي)، ولكني لا ادري لماذا اشتغل هذا الشغل؟ ولماذا أسعى كل هذا السعي؟. . انهم يقولون لي (اشتغلي) وأنا اصدع بالأمر!. .

كنا على وشك الوصول إلى آخر (الجسر) فتراءت لنا أضواء (غلطة)، فرأيت من الواجب أن أقول لتلك الفتاة المسكينة كلمتين أسليها بهما، فقلت لها:

- لا تجزعي يا آنسة، اصبري وتجلدي، فالصبر أقوى من يعتمد عليه المرء في طريق الحياة. فهزت رأسها الصغير وقالت:

- الصبر يا سيدي؟ إن الإنسان أوجد لنفسه كلمات خداعة يخدع نفسه بها ليتحمل مصائب الحياة. وازداد اضطرابها فقالت:

هل تعلم يا سيدي ماذا ينتظرني في البيت بعد كل هذه الأتعاب وهذه المشقات من الصباح حتى هذا الوقت المتأخر من الليل؟ إن والدي في مثل هذه الساعة يعود من الحانة يرسم في مشيته لام الف، فإذا دخل المنزل جلس في غرفته يتم ما فاته في الحانة انتظارا لي، وهو قد جعل لنفسه في

البيت حانة صغيرة، فغرفته مملوءة بالزجاجات الفارغة والأقداح المكسورة والصحون القذرة، لو رأيت كل ذلك لدهشت، كثيرا ما سعيت لتكون غرفته نظيفة ولكني لم افلح، فعدلت عن ذلك الآن وصرفت همتي إلى ترتيب غرفتي الخاصة وتنظيفها، لله تلك الغرفة الصغيرة! انه صغيرة إلا أنني أجد فيها راحة كبيرة، انزوي فيها بعد عودتي من العمل ليلا وبعد أن اخذ قسطي من كلمات التحقير والشتم التي يستقبلني بها أبى إرضاء لنفسه وكسرا لحدته، هناك في غرفتي فقط افهم معنى الراحة وأفسح المجال لدموع عيني أن تسيل فأجد السعادة في ذلك البكاء، اغسل به قسما مما تراكم على قلبي من الهم والبؤس.

تقول المسكينة (فأجد السعادة)، حتى هذه الفتاة البائسة ترى أن في البكاء سعادة، وفي هذه اللحظة لو لم اخش أن ترتاب بي لأمسكت يدها وشددت عليها بكل قوتي مظهرا ما في قلبي من الرحمة لها والإشفاق عليها.

فقالت بعد صمت قصير:

- أنا على يقين أنني هذه الليلة لن اقدر على تهدئته، آه ليت شعري ما الذي سيكون لي منه؟

فقلت لها:

- ولكنك أيتها الآنسة تشتغلين لأجل والدك، أفلا يدرك تلك الحقيقة فيشكرك عليها؟

وقفت عن السير في الحال ورفعت وجهها إلى ونظرت في وجهي ولم تقل شيئا، إلا أنني أدركت في الحال مغزى نظرتها هذه وما تقصده منها، كانت تريد أن تقول بها لمخاطبها الذي يدعي انه خبير بالحياة (أنت غر قليل التجربة) ثم خطر ببالي خاطر فجائي فقلت لها:

- أيتها الآنسة: إذا كانت مرافقتي لك حتى البيت وإعطائي الإيضاحات اللازمة لوالدك يفيدانك شيئا فاسمحي لي أن أرافقك حتى منزلك. فرددت قليلا ثم فكرت مليا وقالت - وأكثر ظنها أن ذهابي معها سيخلصها من تحقير أبيها ويقلل من حدته -: - نعم يا سيدي اقبل لطفك هذا.

ثم أضافت إلى جملتها هذه قائلة:

- لقد اثر البرد في جسمك فهل لك في قدح من الشاي أقدمه إليك إذا انتهينا إلى البيت؟

ارتفعت الكلفة بيننا وأصبحنا صديقين. كنا في ذلك الحين نتجه نحو (غلطه قوله سي) فقالت:

أتراني لو لم تكن معي كنت اجسر على المرور وحدي من هذه الأماكن؟ ثم وقفت فجأة أمام دار كبيرة وقالت (هنا)

دخلنا إلى صحن الدار المفروش بأحجار المرمر ثم أخذنا نصعد الدرج الحلزوني، لا ادري كم صعدنا، ولكني شعرت بدوار في رأسي وضعفت رجلاي عن حملي لأننا كلما انتهينا من طابق وقفنا قليلا نستعيد قوانا للصعود إلى الطابق الذي فوقه. وقفت أخيرا وأنا أتتنفس بقوة، فقالت ضاحكة: لم يبقى درج نصعده!

فدخلنا في دهليز صغير فيه ضوء ضئيل ووقفنا أمام باب، فنظرت إلى وجهي ولم تجسر أن تطرق الباب فطرقته بظهر يدي فلم يجبني أحد؛ طرقته مرة ثانية فسمعت صوتا يشبه صوت حيوان وحشي، ثم سمعت وقع أقدام تخطو رويدا رويدا خطوات غير منتظمة، وشعرت باقتراب أنفاسه منا، وأخيراً فتح لنا الباب وعاد من غير أن ينظر إلى ما ورائه وفي قلبه من الغضب والسخط عواطف يخشى بأسها.

دخلنا في ممر ضيق ووقفنا أمام غرفتين متقابلتين إحداهما مفتوحة فدخلناها وعلمنا أن الرجل لم يتبين أننا شخصان إلا بعد دخولنا غرفته، فنظر إلي متحيرا بعينيه

المحمرتين من تأثير الكحول فقلت له: إن ابنتك اليوم قد وقعت في خطأ.

كان عند كل كلمة القيها عليه في شرح موقف الفتاة وحالها ترتسم على وجهه المغطى بسحابه من البلاهة منشأها ذلك الإدمان ابتسامة خفيفة وترتخي أعصابه وتنحل كنت وأنا اسرد له القصة، انظر إلى تلك السحنة البلهاء تارة، والى غرفته أخرى. كان غائر العينين بارز عظام الخدين قد رجل شعره بدهن اللوز ليلمع، وعلى وجهه مسحة شباب ميت قد أقامت ذلك الهرم المتصابي بقوة العلاج الذي كان يستعمله.

وكانت الغرفة قذرة ما تحويه هذه الكلمة من معنى، وكان كل ما فيها عبارة عن كراسي عتيقة مكسرة، ومنضدة صغيرة كمناضد المقاهي عليها مشمع اسود اللون، وزجاجات خمر ونبيذ فارغات، وصحون قذرة، ومصباح قد طار من زجاجة قطعة فجعل مكانها ورقة سيجارة وينشر ضياء ضئيلا كأنه أنين باك موجع، وفيها فراش إن صح أن يسمي مثله فراشا، حولت نظري المتألم عن كل هذه الأشياء وقلت له:

- لقد جئت بالآنسة إلى هنا وهاأنذا أسلمها إليك.

فلما سمع مني تلك الكلمة ظهر ما لم يكن في الحسبان: ذلك أن والد تلك الفتاة المسكينة السكير البغيض الذي أبتدأ حياته أجيرا في أماكن الريب في (غلطه) أمضى قسما منهما في مرقص أنشأه بنفسه، تقدم مني مشيرا إلى فتاته الطاهرة التي كانت تنتظر النتيجة، وقد تجلت عليه تماما إمارات البلة وقال:

- لقد ظهرت الحقيقة أيها السيد. . .

- ثم اقترب مني وقال وهو ينظر إلى نظرة مرتاب:

- يظهر أن الآنسة قد وقعت من نفسك. . .

فأدركت سوء نية ذلك الرجل. كم كانت يدي في تلك الدقيقة تود أن تصفع ذلك السكير! حولت نظري إلى ابنته فوجدت وجهها قد علاه الاحمرار، لأنها أدركت غاية والدها.

لله أنت أيتها المعلمة الصغيرة! أيتها المخلوقة التي تشتغلين من الصباح حتى المساء لإشباع والدك، هل أنت حقا ابنة ذلك الرجل؟!

حولت وجهها عني فلم اشك أنها في تلك الدقيقة كانت تود لألمها من تلك المهانة التي لحقها في عصمتها وعفتها،

والجرح الذي أصابها في كرامتها، أن تهرب من بين يدي وتذهب إلى حيث لا أراها فتبكي. . . وتبكي. . .

لم اجبه بشي ما، إن الرجل كان لا يزال ينظر إلى نظرة المرتاب، فأدركت أن من الواجب البعد عن ذلك المكان. وكأنه أدرك ما دار في خلدي، فعرض علي مستهزئا كأسا من (الكونياك) فقلت:

- شكرا. ليس لدي من الوقت ما يتسع لذلك.

وسرت نحو الباب، فظهرت من الفتاة حركة تدل على أنها تود أن تخرج معي حتى الباب تودعني. لكنها لم تجسر على ذلك في بادئ الأمر، ثم أقدمت عليه وسارت ورائي. بقى والدها في غرفته يضحك ضحكا عاليا كأنه يعلن به ما قاله أولا: (يظهر أن الآنسة وقعت من نفسك!!)

تبعتني الفتاة حتى باب الدار وقلت بصوت وتخنقه العبرات:

- سيدي. . .

ثم اضطربت ولم تستطع أن تتم جملتها.

حينذاك أخذت يدها وهي في القفاز بكلتا يدي، وشددت عليها مظهرا ألمي على تلك الزهرة الناضرة التي نبتت في ذلك

المكان الملوث، وحكم عليها أن تعيش فيه عيشة حقارة ومهانة وقلت لها:

- أيتها الآنسة: أكرر لك جملتي السابقة وأقول. إن الصبر أقوى ما يعتمد عليه المرء في طريق الحياة. لا أظن أننا نلتقي مرة أخرى، ولكن كوني على ثقة أنني دائما سأتمنى لك من صميم قلبي السعادة والهناء.

فانحدرت من عينيها دمعتان كبيرتان وسالتا على خديها ثم استقرتا على صدرها، أعلنت بهما شكرها لي.

ففررت من ذلك المحل، وكنت وأنا انزل الدرج أقول في نفسي:

(لقد وعدتها أن أتمنى لها دائما السعادة، ولكن أين منها السعادة؟!).

لعمري لو رايتها حين يبدي الربيع نواره، وينثر على بسط الزبرجد أزهاره، على عربة من تلك العربات الضخمة، التي يركبها صائدات القلوب وسالبات الجيوب وهي متجهة نحو (شيشلي) حيث تموت الفضيلة، وتحيا الرذيلة، تسلم على أحبابها بابتسامات غريبة وإشارات مريبة، لم اعجب لذلك بعد الذي رأيت من حالها مع أبيها.

ما أتعس تلك الفتاة الصغيرة! إنها بين شقاء ين: شقاء الحاضر بابيها المختبل، وشقاء المستقبل بشرفها المبتذل.

الزواج المبارك

كنت سائراً يوماً وأحد رفاقي في شارع (بك اوغلي) أحد شوارع الآستانة الجميلة. وكان رفيقي على عادته يحدثني أحاديث مختلفة، يحدثني عن نفسه وعن غيره أحاديث منها ما يقبل ومنها ما يمج ويرد. وبينا هو يهدر في حديثه وقف فجأة وصاح:

- إلى أين؟

التفت فإذا هو يكلم رجلاً طويل القامة محدودب الظهر، وكأنه قد تعب من الحياة؛ أسمر اللون، قد طال شعر رأسه ولحيته حتى خرجا عن الحد المألوف، عليه بذلة لا يعلم إلا الله ما لونها، قد أثر فيها الغسل الكثير حتى اختلطت ألوانها وتهلهل نسجها.

فقال له رفيقي:

- ألا يزال الحال على ما نعهد؟

فهز الرجل رأسه علامة الإيجاب وارتسمت على ثغره ابتسامة الترح لا ابتسامة الفرح.

فقال له رفيقي:

- بارك الله فيهم. وانصرف عنه

ثم ألتفت إلي وقال هل أقص عليك قصة هذا الرجل؟

فقلت له على مضض:

- هات ما عندك

فأخذ يقص علي قصة الرجل، يقصها بصورة مونقة، لها من إشاراته اللطيفة ومن بيانه البديع خير حلية وأبدعها. قال: هذا الرجل من لداتي في السن، ومن رفاقي في العمل، كنا مأموري حساب في مصنع حديدي ونحن في نهاية العقد الثاني من عمرنا، وكان مرتبه الشهري أربعة دنانير، ولكنه كان بالرغم من قلة المرتب ذا زي حسن وهندام جميل، فإذا ظهر زي كان أسبق الناس إليه. كان زيه أحسن أزيائنا جميعاً، وكان يفوقونا طراً في العناية بثيابه وجسمه، فكان يحلق ذقنه في كل يومين مرة، وكان مغرماً باللهو كثيراً، فإذا كان يوم الاثنين جاءنا بكل طريف من أحاديث لهوه ومرحه في بياض يوم الأحد وسواد ليله، ولم نكن نجد عند أحد ما نجد عنده من أخبار معارض الصور ومسارح التمثيل والمتنزهات. جاء في يوم جمعة صباحاً إلى الدائرة وهو تحفة في هندامه وآية في زيه؛ كان في رجله حذاء لماع قد جعل

حوله قطعة جوخ من قماش بنطلونه، وحول رقبته عقدة من قماش أزرق اللون قد ربطها ربطة جميلة، وجعل في وسطها دبوساً ماسياً على شكل نحلة جناحاها من ياقوت، لعله قد ورثه عن أمه، ومن جيبه الخارجي تدلى منديل حريري ذو ألوان جميلة، وفي صدره سلسلة ساعة ذهبية رأسها في عروة صدارته وطرفها الآخر في جيبها، وفي إصبعه خاتم زمردي، وفي رأسه طربوش صغير قاتم الحمرة يختال بلذة لارتفاعه فوق ذلك الهندام الجميل. فاجتمعنا حوله ضاحكين نسأله عن سر هندامه الجميل وتأنقه الشديد في هذا اليوم، فقال:

- سأذهب اليوم إلى منتزه (كاغدخانه)، وكل ما أرجوه منكم أن تكونوا عوناً لي على الرئيس ليسمح لي بالذهاب، فان التأخر يضرني كل الضرر. ثم مد يده إلى جيب معطفه وأخرج محفظة أوراقه وسحب من بينها ورقة (حمراء) اللون لوح لنا بها وهو يبتسم ويقارب ما بين جفنيه وينظر إلينا نظرة ذات مغزى، ولكنه ظن علينا بسر تلك الورقة، وأهمنا ما أهمه، وأحببنا أن ينعم ذلك اليوم بنزهة، فذهب أصدقاء أحد الرئيس إليه، وما زال به يكلمه في شأنه حتى سمح له

بالذهاب في ذلك اليوم، وكاد صاحبنا يجن حين علم ذلك. فكان يصفق بيديه ويخالف بين رجليه، وقفز إلى الشارع وهو يقول:

- سأقص عليكم غداً ما يكون في هذا اليوم

كنا ننظر إليه نظر حسد ممض، وننظر إليه نظر المحبوس في غرفة مظلمة يؤدي عملاً شاقاً، إلى رجل حر، طليق، يسرح ويمرح كما يحب ويختار

أما هو فطار كما يطير العصفور أفلت من القفص. . . عاد في اليوم الثاني إلى عمله بهندامه المألوف، فاجتمعنا حوله نسأله بإصرار عن سر الورقة (الحمراء) وعن أخبار النزهة في (كاغدخانه)، فلزم السكوت مع أنه هو الذي وعدنا بأن يقص علينا ما يجري معه هناك! كان لا يجيبنا إلا بقوله:

- لا شيء، لا شيء. . .

ويبتسم ابتساماً يدل على أن لديه أشياء كثيرة، لكنه يود إخفاءها عنا. فلما قطعنا الأمل من إفشائه سر الورقة وأخبار النزهة عاد كل منا إلى مكانه وأقبل على عمله. أخذت ألاحظه ملاحظة خفيفة فرأيته بين آونة وأخرى يستتر خلف دفتره الذي أمامه ويفتح محفظته ويلقي على ما فيها نظرة

تـنم عـن غبطـة وسـرور. ثـم رأيـت ورقـة (زرقـاء) بجانـب (الحمراء)، فقلت له وهو يلقي خلسة نظرته المعتادة على ما في محفظته:

- أراك تهيء نزهة أخرى في (كاغدخانه)؟

فأجابني ضاحكاً:

- ربما. . .

بعد هذا الأسبوع أصبح رفيقي ينتحل أسباباً يسمح له معها الرئيس بالتغيب أيام الجمع، فكان يذهب إلى منتزه (كاغدخانه) يقضي أيام الأحد والجمع هناك، ولكنه خلافاً لعاداته لا يقص علينا أخبار نزهاته ورياضته. كنت ألاحظه دائماً من حيث لا يشعر بي، فرأيت محفظته قد امتلأت بالأوراق (البنفسجية والخضراء، والصفراء) بجانب (الزرقاء والحمراء). فقلت في نفسي، كأن رفيقي يستعرض الألوان متخيراً، وسنرى أي لون يختاره في النهاية ويستقر عليه رأيه. وبعد مدة علمنا اللون الذي وقع عليه اختياره. . . .

جاءنا في صباح يوم بادي القلق ظاهر الاضطراب، فأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً يحاول أن يتكلم ويفضي إلينا

بشيء ولكنه لا يقدر، ثم نظر إلى وجه كل واحد على حدة وقال:

- سأقول لكم شيئاً

حولنا جميعاً أنظارنا إليه، وكنت واثقاً أن ما سيقوله يتعلق بالأوراق الملونة التي في محفظته وقال:

- سأتزوج. . .

فصعقنا لهذه الكلمة كأنها قنبلة سقطت علينا من السقف، واستتلى فقال بكل جد:

- سئمت هذه الحياة، حياة الوحدة، وعزمت على أن أستريح، إن ملازمة غرفة البيت والاشتغال بالعيال والأطفال خير من قضاء الليالي الطوال في أماكن اللهو ومحال الفجور.

فقلت له:

- أن مسألة الأطفال مسألة ثانية، والمهم الآن أن نعرف من هم العيال؟

فأجابني بكل جد:

- إنها موافقة لي تمام الموافقة، إنها ليست غنية، وأنا لست من طلاب الغنى في الزواج، ستأتيني بثيابها فقط، إن والدي مازال يشكو من الوحدة بعد وفاة والدتي، ويقول إن

كل بيت يحتاج إلى امرأة، فسأسبقه وأتزوج قبله، هذا كل ما هنالك.

فقلت له:

- لابد من صلة متينة بين هذا الزواج وبين الأوراق الملونة؟

فلم يصدق ما قلت ولا أنكر ما ادعيت، أنه سكت، وكيف ينكر ما لا يقبل الإنكار؟ سمعنا هذا منه وسكتنا، ولم يظهر بيننا من يخالفه في رأيه الذي أعتزم عليه، ولا يقول له: إن الإقدام على الزواج مع مرتب ضئيل لا يتجاوز الأربعة دنانير كل شهر، لا يدل على رأي حسن وفكر مستقيم، وأن الزواج لو كان يترتب على كل رؤية يعقبها ميل لكان الزواج عبارة عن سلسلة لها أول وليس لها آخر.

كان العقد وكان الزفاف، وكانت الحفلات الشائقة التي نعمنا فيها بنعيم صديقنا. وبعد غياب أسبوع عاد إلى عمله وأول كلمة قالها هي:

- إني سعيد. . .

نعم كان سعيداً. . . كنا نعرف ذلك من الطيش الذي أظهره باستدانته من هنا وهناك نقوداً أنفقها في حفلات

العرس. كنا نتحقق سعادته حينما نرى الصيارفة عند باب الدائرة في أكثر الأحيان. . . وحينما نراه يوم أخذ المرتب غارقاً يفكر وقلمه بيده يكتب أعداد ويمحو أخرى. . . لم نره مسروراً إلا أسبوعاً واحداً فقط. ثم جعلت ألاحظ أن خطوط الهم والتفكير أخذت تظهر على جبينه، ولكنه مع ذلك كان بين آونة وأخرى يقول لنا:

- إنني سعيد. . . كأنه يحاول بذلك أن يخدع نفسه، أو كأنه يريد أن يخدعنا

سمعته في أحد الأيام وقد أخذ الموظفون يستعدون للذهاب إلى منازلهم للغداء يقول:

- إني اليوم أشعر بفتور في جسمي لا أقدر معه على الذهاب إلى البيت للطعام، لذلك سأبقى هنا وسأتناول شيئاً من الخبز والجبن. وفي اليوم الثاني أتى بعلبة صغيرة ووضعها في درج مكتبه ثم أخرجها عند الظهر وقال:

- لقد رأيت أهل البيت يقددون لحماً فاشتهيت أن أجعل منه غدائي هذا اليوم. كأنه يريد أن يعتذر عن عدم ذهابه إلى البيت ليتناول فيه طعام الغداء على حسب العادة، عند ذلك قوى عندي الشعور بسعادته وقلت:

- حقاً أنه سعيد. . .

أصبح بعد ذلك اليوم لا يخرج ظهراً إلى البيت لتناول طعام الغداء، ولا حاجة إلى الاعتذار عن ذلك إلى رفقائه، وأصبح في أكثر الأحيان يأكل الخبز والجبن لا يزيد عليهما، وربما أتى معه من البيت بسمك محمر، أو لحم مقدد، قد صر ذلك في جريدة، وربما عدل عن اللحم إلى البيض المسلوق. رأيته يوماً يفتح قماشاً فوق منضدته ويقلبه بين يديه ويتأمله مفكراً، فلما وقع نظره على نظري رفع قطعة القماش بيده وقال لي:

- ألا تعجبك هذه القطعة لمعطف نسائي! إنها حقيرة في نظرها لأن ثمنها ثلاثة دنانير!

لقد أقدم على شراء معطف بثلاثة دنانير مع أن مرتبه الشهري أربعة فقط! ومع هذا فهي ساخطة وتعدها حقيرة. . يا للغرابة!. . لم أر من اللياقة أن أجيبه بما يجب، فأرسلت زفرة من أعماق قلبي وقلت:

- إنه سعيد وسعيد. . .!

في اليوم الثاني أخذنا مرتباتنا، وبينما كنا خارجين من الدائرة كان أحد الصيارفة في انتظاره عند الباب فتعلق به

وطالبه بنقوده صائحاً معربداً، فدفعه عنه، ولكن الصيرفي أخذ بتلابيبه، ولم يرض أن يتركه حتى يدفع له كل ما عليه، فتخلص منه بعد جهد، وعاد إلينا قائلاً كأنه بكلامه يريد أن يخفف وقع المنظر في نفوسنا:

- يا له من وقح! كأني قد أنكرت ماله علي من دين، فهو يطالبني بهذه الشدة!

فقلت في نفسي: ستدفع إليه بلا شك، وما الذي يقوله هذا النذل فيك إذا أنت لم تأخذ من المرتب إلا ثمن المعطف الذي قدمته للفتاة التي عبثت بلبك بوريقاتها الزاهية، وإلا نفقاتك البيتية والخصوصية، ثم قدمت إليه الباقي جملة واحدة؟! كان يفقد نشاطه بالتدريج، لقد حل مكان النشاط سكون وفتور، أما اعتناؤه بزيه وهندامه فكان يقل شيئاً فشيئاً، ولكنا مع ذلك كنا أحياناً نرى دبوسه الماسي فوق عقدة رقبته، وخاتمه الزمردي في إصبعه، وسلسلة الساعة على صدره. أما الثياب فكان يقضي داخل الحلة الواحدة فصلاً كاملاً، وكان لا يبدل قميصه إلا نادراً، وظهر عليه انقباض، فربما مرت عليه أيام لا يحرك شفته إلا بكلمة. كنا نشعر نحن أن وراء هذا التبدل ما وراءه من حياة بيتية

مضطربة. . . . إلا أنه جاءنا يوماً على غير عادته فرحاً مستبشراً فقال لنا عند دخوله:

- هنئوني، لقد رزقت اليوم فتاة. ثم نظر إلى تقويم الأوقات وكتب في دفتره: ١٥ آذار ١٣٠٠. هنأه كلنا بالمولود الجديد وأنا من جملتهم وقلت:

- ها قد جاء دور الأطفال بعد العيال. جاءني بعد أسبوع وقال والحمرة تعلو وجهه:

- هل عندك دينار تقرضني إياه؟ ثم أردف قائلاً من غير أن يترك مجالاً لرد طلبه:

- يجب علي أن أدفعه إلى القابلة. لقد سمعت الدينار في جيبي يزفر زفرة حرى. ولكن لم يكن في استطاعتي أن أرد طلبه، فأعطيته الدينار. ومن الغريب أنه منذ ذاك الحين أخذ يعاملني معاملة باردة، ويقابلني بوجه جاف، مع أنه لم يكن ثمة حاجة إلى ذلك، لأني منذ ناولته (الدينار) نفضت يدي منه. لقد تغير حال رفيقنا وازداد اضطراباً بعد أن صار أباً. دخل يوماً إلى الدائرة وهو يقول:

- ألا تسألون ما حل بي؟ فأخذنا ننظر إليه بقلق وننتظر أن يذكر لنا ما حل به، ففتح حينذاك ملفاً صغيراً بيده

وأخرج منه علبة صغيرة سوداء فرفع غطائها وأرانا إياها فإذا فيها: ثدي صناعي. وقال:

- إن زوجتي لن ترضع أبنتها بعد الآن، سنرضعها بالثدي الصناعي، فهل تدرون لماذا؟ حينذاك توقف عن إتمام كلامه كأنه كان يتردد بين أن يقول وبين أن يسكت ثم قال وهو خجل:

- لأنها حامل!

كان ينظر ألينا باضطراب، وكان منظره مؤلماً ومضحكاً معاً رأيته يوماً عند طعام الظهر أخرج قطعة (كعك) وقطعة من جبن (القشقاوان) وأخذ يأكلهما وهو يتمتم قائلاً:

- أنت تجوع وابنتك في البيت تأكل مرق اللحم الدسم أخذت علائم الحزن ترتسم على محياه وتظهر بأجلى مظاهرها، وبدت على وجهه معاني مؤلمة حزينة لبعد عهده بالموسى، وكان كثيراً ما يكلم نفسه كالمجانين، وكثيراً ما يشتغل بحسابه الخاص - حساب الدين - عن حساب الدائرة، ويسافر بفكره إلى أقصى حدود الخيال.

عدنا يوماً من الغداء إلى الدائرة فرأيناه يخيط بطانة معطفه، ذلك المعطف الذي صاحبه زمناً طويلاً، فخجل منا وقال:

- أن زوجتي مريضة لذلك أنا أخيط ثيابي بيدي.

إنه لم يقل الحقيقة لأنه ما كان يخيط بطانة معطفه المفتوقة، بل كان يرفو بطانته التي تهلهل نسجها لطول الأيام. حينما ذكر لنا خبر ولادة المولود الثاني لم يكن فرحاً مستبشراً كما كان في أول مرة بل قال:

- لقد رزقت اليوم غلاماً. ثم نظر إلى تقويم الأوقات وأخرج دفتره من جيبه وكتب فيه: ١٢ نيسان ١٣٠١

لم نره بعد ذلك شكاً أو تبرم، ولكنه كظم كل ذلك في قلبه صابراً مستسلماً لقضاء الله وقدره. سعينا مع الرفاق عند رئيس الشركة ليزيد راتبه فلم نفلح، وكان جواب الشركة:

- أن أولاد الموظفين ليسوا من صنع معاملها حتى تتكفل بهم. أربعة الدنانير للزوجين وللولدين. . . . صار طعامه عند الظهر الخبز والجبن بصورة منتظمة، ولم نعد نراه في منتزه ولا متفرج، وأنزل نوع تبغه الذي يدخنه درجة ثم درجات،

وأصبح كثير النظر في أوراق الحساب، وفي آخر أحد الشهور زاره الصيرفي الملح يطالبه بالدين فصاح به:

- لن أعطيك، لن أعطيك شيئاً، افعل ما تشاء.

لقد كان قبل اليوم يكلمه سراً، أما اليوم فهو يكلمه علناً، لأنه لم يعد يخجل منا. جاءنا في صباح أحد الأيام وبيده علبة فيها ثدي صناعي. فقلت له:

- ما هذا؟

فقال:

- لا شيء

كأنه خجل أن يقول ما قاله أولاً، وفي ذاك النهار لم يزاول عملاً، ولكنه جعل رأسه بين يديه واسترسل في أفكاره حتى المساء، لا ينظر إلى شيء ولا إلى أحد. ولاحت مني التفاتة إليه أحد الأيام فإذا هو ينظر إلى تقويم الأوقات ثم يخرج دفتره من جيبه؛ فقلت له:

- هل من قيد جديد لزائر جديد؟

فأرسل نفساً قصيراً وكتب في الدفتر: ١٠ مايس ١٣٠٢

ثم قال وهو ينظر إلي مبتسماً ابتسامة مؤلمة:

- لقد رزقت اليوم فتاة أخرى كنت أنا أشعر من أعماق نفسي بألم من كثرة أولاد هذا الرفيق، أما هو فكان يبكي من فرط تألمه، فحول عينيه عني وأقبل على عمله. أخرج يوماً ساعته من جيبه وفصل عنها سلسلتها الذهبية ولفها بورقة، فقلت في نفسي:

- لن نرى السلسلة الذهبية بعد الآن. إن رفيقي لم يدفع ثمن القهوة في هذا الشهر، وأصبح منذ ذاك اليوم يشربها مرة واحدة في النهار بدلاً من ثلاث مرات. ساءت حال الرجل وأشتد به الضيق، وظهرت ملابسه ملوثة ببقع الحبر، واستحال لونها، وتهلهل نسجها ووهى، فكنت إذا رأيته على هذا الحال رثيت له وبكيت عليه. ولقد دخل علي يوماً وعليه حلة جديدة لم أرها عليه قبلاً، ففرحت لذلك، إلا أن فرحي لم يطل، فقد قال لي غير خجل مني:

- إنها قديمة، ولكني صبغتها فصارت جديدة. وبعد هذا الاعتراف أصبحنا صفيين، وزال ما بيننا من الفتور الذي سببه (الدينار) واتخذني كاتماً لأسراره، يبثني آلامه وأحزانه. لقد سرد علي تدريجاً كل آلامه في الحياة. فذكر لي أولاً مبدأ صلته بزوجته وأساس هيامه بها، وأن ذلك كان في منتزه

(كاغدخانه)، وبسبب تلك الأوراق الملونة. . . وأنه كان يأمل أن ينعم بالاقتران بها، إلا أنه لم ينعم بذلك إلا أسبوعاً واحداً وأتى بعد ذلك الشقاء. . .، ثم تجلت بعد ذلك حياة البؤس من اجتماع فقره وفقرها، فكان بينهما نزاع سببه عدم تمكنه من تأدية نفقاتها وطلباتها. . . ثم الأولاد. . .

وعاد إلى زوجته فقال:

- أنها لما رأت نفسها محرومة مما تشتهي من ملبس ومأكل ومشرب أخذت تعامله معاملة قاسية لا تطاق، ولكن ماذا يعمل هو إزاء ذلك، وها هو لم يلبس بذلة جديدة منذ تزوج حتى الآن، وأن ياقته قد تمزقت فقلبها على قفاها لأنه لا يجد غيرها ولا يستطيع الوصول إليه، على أنه قد عزم على أن يتخذها من مشمع كيلا يتمزق سريعاً، وها أن ولديه الاثنين قد كبرا، وهما في حاجة إلى ثياب وإلى أحذية لا يجدها.

وكان بعد ذلك اليوم الذي نفض فيه جعبته أمامي، يسمعني كل يوم فصلاً من فصول حياته المؤلمة. نظر إلي يوماً وهو يريني قماشاً لأبنته الكبرى وقال:

- سأقول لك شيئاً. ثم عاد وقال:

- لن أقول لأنك لا تصدق

إلا إني عرفت ما يقصده حينما رأيت دفتره في يده ونظره في تقويم الأوقات، لقد كتب في دفتره: ٨ حزيران ١٣٠٣

فقلت له: - أطفل أيضاً؟

قال: نعم غلام، وقد أصبحوا أربعة.

ثم قال وهو يبتسم: - أنهم لا يخطئون نوبتهم: فتاة ثم غلام، ثم فتاة ثم غلام، وهكذا. .

كان يضحك ولكن كان قلبه يبكي. فقال لي في نفس ذلك اليوم: إن الدخان يؤثر في صدره ويؤذيه، وهو يرغب ي تركه لو يستطيع. أدركت ما يقصده المسكين من ترك الدخان، فتأملت له كثيراً حتى كدت أبكي.

رزق ولداً آخر، فصار الأولاد خمسة، وفي ذلك اليوم خرجت نفسه من يده، فانه ما كان يدخل الدائرة ويجلس إلى منضدته حتى أخرج دفتره وكتب فيه وهو ينشج نشيجاً وهو يفتت الكبد ويصدع القلب: ٥ تموز ١٣٠٤

فقال بعض رفقائنا الجفاة ساخراً منه:

- ضع أرقاماً متسلسلة بجانب أولادك كيلا تنسى عددهم.

كانت الخامسة فتاة على الترتيب المعتاد. بعد ذلك بقيت معه ثلاث سنين في الوظيفة رأيته فيها ثلاث مرات يكتب في دفتره، كتب فيه بجانب اسم فتاة وغلامين: ١٤ آب ١٣٠٥، ٨ أيلول ١٣٠٦، ١٤ تشرين الأول ١٣٠٧

كأن الدهر كان يريد مداعبة هذا الرجل الفقير المسكين فهو يقذفه مصراً في كل سنتين بفتاة وغلام. . . لقد خلت محفظته من الأوراق (الملونة) بعد أن كانت تغص بها، ولم يبقى فيها غير دفتر صغير فيه صحيفة كاملة لتواريخ أولاده. بعد أن قيد تاريخ ولادة الولد الثامن. . . ألقى نظرة فاحصة إلى آخرها ثم جاء إلينا وقال:

- تعالوا لأريكم اتفاقاً غريباً. فاجتمعنا حوله فقال:

- اقرأوا من أعلى الصحيفة حتى أسفلها

فقرأنا فإذا فيها: آذار، نيسان، مايس، حزيران، تموز، آب، أيلول، تشرين الأول

ثم أخذ يشرح لنا مكان الغرابة في ذلك فقال:

- انظروا إن بين كل ولد من أولادي ورفيقه ثلاثة عشر شهراً لا تزيد، لذلك كانت شهور ولادتهم متعاقبة لا فاصل بينها فقال أحدنا مستهزئاً أيضاً:

- الآن جاء صاحب تشرين الأول! وسيأتيك أربع آخرون حتى شباط. وفيه تنتهي المجموعة ويكمل عددهم (اثني عشر) لقد مضى على خروجي من خدمة الشركة أربع سنوات لم أر خلالها هذا الرفيق القديم، فلما رأيته اليوم سألته عن حاله فإذا (سيل) الأولاد لا يزال كما كان. وعلى ذلك فان (شباط) قد وضع (هديته) وتمت المجموعة التي بشر بها، مع أن المسكين لا يزال يلبس الثياب التي كانت منذ أربع سنين، وربما كان مرتبه لا يزال (أربعة دنانير).

هنا انتهت القصة التي رواها رفيقي فودعته وركبت الترام إلى بيتي، وأنا أفكر في ذلك الرجل المسكين وسوء طالعه، وأستنزل الرحمة والرضوان على جدث دفين معرة النعمان.

العذراء الدميمة

لم يتجاوز التفاوت بينهما في السن غير عامين، ولكنه في الجمال وحسن الخلق كان جد عظيم. لازم النحس (عصمت) منذ رأت النور، فقد ولدت وأمها تكاد تفقد الحياة من معاناة مرض خطير، بله آلام الوضع، ولم يكن للأسرة هم إلا إنقاذ الأم من براثن الموت، ومحاولة إصلاح ما أفسده مرض ذات الجنب من جسمها الرطيب، فلم يرحب أحد بالقادمة الجديدة، أو يفكر في أمرها حتى الأم - وا أسفاه - كأنها في هذه اللحظة قد فقدت غريزة الأمومة، فلم تنظر إليها حينما تلقفتها يد القابلة إلا كما تنظر إلى خرقة بالية!

ولم يكن حظها من عناية أبيها بأوفر منه عند أمها، فكثيراً ما كان يراها وهي ملقاة على الأرض تشارك الكلب في مزجره، وفي يدها هنة تشبه قطعة الخبز دون أن تتحرك في قلبه عاطفة الأبوة نحو التي أتى بها إلى الحياة على كره منها؛ وهكذا سرت العدوى إلى سائر أفراد الأسرة وكأنها وترتهم جميعاً قبل أن تأتي إلى هذا العالم، فلما واتتهم الفرصة ثأروا

لأنفسهم بإهمالها والحط من شأنها، ولولا وشيجة الإنسانية لقضت هذه التعسة جوعاً فأراحت واستراحت

اسندوا أمر العناية بها إلى ظئر حامل كسول، فلم تعطها من الرعاية إلا المقدار الذي يسمح لها بالحياة، فشبت إلى أسفل، وكأنها كانت تسير في نموها نحو مركز الأرض!

شاء القدر أن يصور للناس صورة ناطقة للقبح الجسماني، وينصب تمثالاً حياً للتنافر الجسدي، فكانت (عصمت) كما أراد: عينان غائرتان لا يكاد يبدو منهما نور الحياة، وخدان شاحبان بل عظمان عاريان إلا من ذلك الجلد الحائل، بينهما نتوء يشبه الأنف، تحته شفتان ضل سبيله إليهما الدم!! يضم كل هذا وجه أشبه بوجوه الموتى، إن فقد معالم الحسن فلم يفقد معاني الرحمة والرثاء، ينوء بذلك جذع ناحل وأطراف هزيلة

وهنا يجدر أن نسأل أنفسنا: أيكون القبح عقبة في سبيل حب الوالدين لفلذة كبديهما؟؟!. . .

هذا ما لا نستطيع الجواب عنه، ولكن الذي نعلمه أن عاطفتهما نحو (عصمت) كانت أشبه بالرحمة منها بالحب،

وحسبنا مصداقاً لهذا محاولتهما البعد عنها تحت تأثير غريب كان يستولي عليهما كلما لمحاها

استردت الأم صحتها بعد جهاد عنيف، ودبت العافية في جسمها دبيب الراح في جسم شاربها، فشبا خداها، وبرقت عيناها، وغمرت الهناءة وجهها، وجرى ماء الحياة في جميع أطرافها، وبينما هي على وشك الظفر بالنصر الحاسم على عقابيل المرض المنهزم؛ إذا هي تحس حركة في أحشائها تؤذنها بزائر جديد، فاستخفها السرور، وحملت البشرى إلى زوجها باسمة، ثم ذاع المخبرين أفراد الأسرة، فعمهم البشر كأنه يولد في هذا المنزل لأول مرة، وكأن (عصمت) المنكودة الحظ لم تكن في الحسبان!

أخذوا في أعداد العدة لاستقبال هذا الوليد، وطفقت الوالدة تهيئ الأقمطة الناعمة، والأقمشة الفاخرة، وذهب الوالد يبحث في الأسواق عن أحسن مهد وأثمن هدية، وكان شغله الشاغل في شهور الحمل البحث عن كل ما يسعد الوالدة والمولود

وبينما (عصمت) تعبث في غرفة الخدم، تحبو كأنها الحشرة لا يعبأ بها أحد، ولا يعيرها التفاته إنسان، والجميع

في شغل شاغل - فقد جاء الأم المخاض - إذا القابلة تقول: كأنها قطعة من نور. .! يا أم ابنتي هلا نظرت إليها.؟ وكان هذا إيذانا منها بانتهاء الأمر. . . لم تصدق الأم بادئ بدء، وسألتها جازعة: تشبه من يا ترى؟ وكأنها تخاف أن ينكبها القدر مرتين، ولما يزل شبح (عصمت) يتراء لها. إجابتها بلهجة الظافر. تشبه من.!؟ لمن يحتمل أن تشبه سوى أمها وأبيها .!؟ وشاع البشر في وجه الأم حينما وجدت مصداق قولها في وجه ابنتها الجميل التكوين.

علم أهل الحي فجاءوا مهنئين، وحفلت الدار بهم، فصارت الأم بما ملكها من الزهو بوليدتها الجميلة تكشف لهم عن وجهها، وهم يرتلون آيات الإعجاب بها ويكررون كلمات التهنئة، وأخذوا يتخيرون اسماً لطفلتهم، وأي اسم يؤدي كل هذه المعاني التي تنم عنها ملامحها من الحسن الرائع؟ إن كل ما نذكر من الأسماء غير واف بتلك المعاني. فليبحث أبوها إذن في المعاجم، وليسأل الغادي والرائح عله يظفر بضالته التي ينشدها. . . بعد جهد، خطر له اسم لبطلة قرأ عنها في إحدى القصص، فأطلق عليها (لمعان) تعاقبت الأيام، وشبت (عصمت) فبدأت ترقب طفولة أختها

المرحة المترعرعة، وترى من إعزازها وإعجاب الأسرة بها ما لم تظفر في يوم من الأيام ببعضه فتعجب، ولكن سرعان ما تهديها غريزتها إلى أن بها نقصاً، فيعتريها شعور مبهم غامض؛ أهذا هو السر في إنها ليست محبوبة، وأنها أدنى منزلة من تلك التي تتبوأ ذراعي أمها مفترة الثغر باسمة الملامح؟ كانت (عصمت) مرهفة الحس إلى حد بعيد، وكأنما عوضها الله سبحانه ما نقص من خلقها بكمال حسها ودقته - ويا ويل من دق حسه وقصرت يده عما يريد. .!

كانت ترى الفارق كبيراً في معاملة أبويها لهما فيعتريها من الألم والحسرة ما دونه وخز الإبر ووقع السهام، ينظر الوالد إلى أختها التي لا تفارق ذراعي أمها فيشع من عينيه السرور، حتى إذا وقع بصره على (عصمت) أطلت الشفقة من وجهه، وكأنها تسخر من هذا من هذا المخلوق العجيب، وربما تصدق عليها بقبلة تدرك معناها فتشعر برعدة المحموم من فتورها وبرودتها، وقد يخيل إليها إن الثلج طفق يذوب من موضعها، فتذوب حسرة وألماً، وتجر جسمها الهزيل جراً وتنزوي في ركن قصي، ويعوزها البكاء فلا تجرؤ عليه؛ وقد

تحاول التمرد على أخذها بجناية لا يد لها فيها فيقعدها العجز عن السير في هذه السبيل.

بقيت (عصمت) تعاني من أمرها ما تعاني، و (لمعان) تتفتح كزهرة الربيع، ترعاها عناية الأب ويكفلها حنان الأم وعطف الأسرة. . . أكسبها كل هذا نضارة فوق نضارتها، ونشاطاً فوق ما طبعت عليه من الخفة والمرح ودوام الابتسام، ولا عجب، فهذا شأن كل من اطمأن على أنه استوى على عرش القلوب وتملك ناصية الأفئدة.

أقبل العيد، وأشترى الوالد لكل من ابنتيه ثوباً من المخمل القرمزي الجميل، فكان لهذا - في أول وهلة - من الأثر الطيب في نفس الأختين ما سرهما، ولكن شد ما اختلف شعورهما بعد ذلك! رأت (عصمت) أختها وهي تختال في ثوبها الجديد، وقد أفاضت عليه من حسنها ما ضاعف بهاءه ورونقه، ثم تأملت نفسها فكادت تصعق. . . . . أنهما من نوع واحد! ولون واحد! ومن صنع يد واحدة! فما بال أحدهما يصعد إلى قمة الحسن، وينزل الآخر إلى أحط دركات القبح!؟ هل شارك الجماد أبويها في إذلالها والزراية بها؟ هل يميز

الثوب بين الوسامة والدمامة حتى يصدمها هذه الصدمة الأليمة. . .!!؟

إذن أف له ما أقبحه، وما أشد بغضي له!. ناجت نفسها بكل هذا، والألم يحز في أحشائها حزاً تحس أثره اللاذع في السويداء من قلبها، وكأنها نسيت نتوء عظام كتفيها، وهزال جسمها، وشحوب لونها الأسمر الذي ضاعفه لون ثوبها الجميل؛ على حين تخلع (لمعان) من روعتها ونضارتها على ثوبها ما يزيده جمالاً وروعة

هتفت بالأختين مربيتهما: هيا قبلا أبويكما وهنئاهما بالعيد. . . لبتا الأمر، ومشت (عصمت) على استحياء والهم يملأ فؤادها المكلوم، وقد سبقتها (لمعان) - وكأنها ظبي أهيج - في خفة ورشاقة، ولكنها انتظرت مقدم أختها لتتقدمها في أداء هذا الواجب

مشت البائسة مطأطئة الرأس، مكتئبة النفس، في وجوم يكاد يكون بلادة، ثم تناولت أيدي أبويها وقبلتها، فبادلها كل منهما بقبلة، وكأنما يقبلان جثة هامدة لما غشيهما من الحزن والكآبة، ولكنهما ما لبثا أن تهللا حينما جاء دور (لمعان). .

يا لله للمحدود التعس.!! حتى في اليوم الذي يفرح فيه الناس جميعا، ويتناسى كل حزين حزنه، وكل بائس بؤسه، تطعن هذه الشقية تلك الطعنة النجلاء!

ظلت (عصمت) شاخصة، وسرى من روحها الحزين تيار قوي شل حركات الجميع فجمدوا كأنهم التماثيل، ولم يخرجهم من هذه الحال إلا (لمعان) حينما تحركت، وكأنها أدركت فجأة مقدار ما أصاب أختها من غبن وما نالها من شقوة، فجاش قلبها بالرحمة والحب، فاحتضنتها وتعلقت بها، وبذلت جهدها حتى طبعت قبلتها على جبينها، ولكن (عصمت) لم تبادلها إياها، وكان هذا عن غير عمد منها، فقد كانت شاردة اللب، كليلة الذهن، يضطرب صدرها بشتى الآلام وضروب الأوجاع، وقد أيقنت في هذه الساعة بماكانت لا تشعر به إلا محاطا بالغموض والإبهام، وحاولت أن تجزي أختها بما فعلت، فاحتضنتها وأرادت أن تقبلها، ولكنها انفجرت باكية في نشيج محزن، وأخذ صدرها يعلو ويهبط، وعيونها تفيض بغزير الدمع وهي تحاول منعه، ولكن هيهات فقد أفلت من يدها الزمام.

منذ تلك الساعة (وعصمت) في هم دائم، حتى الابتسامة التي كانت تزور شفتيها لماما، وكأنها ضلت طريقها إلى الثغور الفرحة، فأوقعها سوء الحظ في هذا الثغر الحزين. . . حتى هذه الابتسامة غادرتها إلى غير رجعة، فقد أزالت تلك الدمع الحارة التي ذرفتها عيناها يوم العيد الغشاوة التي طالما حجبت عنها الحقيقة في أيامها الأولى وأيقنت أن جرحها عميق بعيد الغور لا يرجى له برء، ولا يعرف له دواء، وكلما تقدمت سنها قوي عندها الشعور، وضوعف الألم. . . . . .

أما (لمعان) ففي شغل عنها بزينتها ولهوها ومرحها

كبرت الأختان، وأشرفتا على سن الزواج، وأصبحت (لمعان) فاتنة المدينة، وغادتها الفريدة، وشرع الأبوان في إعداد ما يلزم لزفاف فتاتيهما، كسبا للوقت واستعدادا للطوارئ، فكانت (لمعان) تجلس الساعات الطوال، تصور لنفسها ذلك المستقبل السعيد الذي ينتظرها، بينا (عصمت) تتخيل في كل أداة تهيأ لها حية تنهش فؤادها، أو سهما يسدد إلى قلبها، فكل شيء يذكرها بذل الخيبة، ومرارة الفشل. . . .

الزواج! نهاية الأمل، ولقد فقدت الرغبة، وهل عاش لها أمل أو بقيت لها رغبة؟

لقد فقدت الأمل، ولقد فقدت الرغبة، ولم يبق لها إلا إحساسها، وكم كانت تجاهد المسكينة نفسها حينما تعرضها أمها إلى جانب (لمعان) على الخواطب. . . .

وهل تنتظر منهن كلمة الإعجاب التي لم تظفر بها في يوم ما من أبويها؟ وهل هن أشفق على إحساسها وأرحم بفؤادها منهما؟. . . . إذن فليذب كبدها، ولتتقطع أوصالها، وهي تساق إلى ذلك الموقف سوقا، ولتتحمل على الرغم منها تلك المخالب التي تنشب في أحشائها وتمزقها تمزيقا، ولتتقبل كارهة ذلك الأعراض الساخر وقتما يتألق للخواطب نور (لمعان) بجانب دمامتها.

هاهي ذي أمامهن تدور بعينيها في الغرفة تلتمس الخلاص كما يلتمسه الطائر السجين فلا تجده، وقد خيل إليها أن الفلك قد وقف عن دورانه في هذه اللحظة الطويلة، حتى إذا أذن لها بالخروج بادرت متهالكة وقذفت بنفسها إلى غرفتها وكأنها فرت من الجحيم فتغلق عليها بابها، وتنزوي في ركن من أركانها جامدة الحركة، كسيرة الجناح، واهنة القوة، لا تستطيع نزع ثيابها ولا النظر في مرآتها، وتظل شاخصة

ببصرها إلى نقطة وهمية، وعواطفها تلتهب بين جوانحها حتى يكاد يحترق جسمها النحيل.

أما (لمعان) فتذهب متهللة إلى غرفة الخدم، وتسر إلى فتاة لعوب منهن كانت تصطفيها - ما كان من أمر الزائرات معها، وكيف كن يحدقن فيها ويداعبنها، خصوصا تلك السيدة الشابة ذات المخمل الأزرق المكسو بالفراء؛ كانت تقص هذا على صاحبتها وهي مفترة الثغر، مشرقة الجبين، تنطق أساريرها بما استولى عليها من الزهو

ظل الخواطب يترددن على منزل الأسرة عامين كاملين، و (عصمت) تكتوي بنار العرض عليهن، إلى أن صهرتها الآلام وحولتها إلى مخلوقة أخرى، إلى قديسة تنشد الصبر، وتطلب من الله العزاء، وكانت تسمع عقب كل زيارة همسا ينبعث من غرفة والديها لم تتبينه بادئ الأمر، إلى أن سمعت أباها ذات مرة يقول للمعان وهي تدخل عليهما الغرفة بغتة: لاشك يا ابنتي في أنك تقبلين الانتظار حتى تتزوج أختك بصدر رحب، أليس كذلك؟

فصمتت (لمعان) خجلا، ولكن هذه الكلمة فعلت في نفس (عصمت) ما فعلت فاعتزمت أمرا. وما زالت ترقب الفرصة لما

اعتزمت حتى لاحت لها عقب زيارة بعض الخواطب، وقد طلب الوالد من ابنتيه أن يذهبا إلى مخدعهما، وحينئذ لم يخف على (عصمت) أن أباها يريد أن يخلو إلى أمها ليحادثها فيما جاء من أجله الخاطبات، فاختفت بحيث تنصت لحديث والديها دون أن يرياها

سمعت أباها يقول: لا لا. لا يمكن أن نزوج الصغرى ونترك (عصمت) فريسة للهواجس، فتقول أمها وهي تحاوره:

لقد انتظرنا طويلا، وليس من الحكمة أن نغامر بمستقبل (لمعان) في سبيل أمل دلت الشواهد على أنه لا يتحقق، وإذا لم تتزوج (لمعان) فلا سبيل إلى زواج (عصمت) وتكون العاقبة تضحية الاثنتين؛ وهذه جريمة لن أوافق على اقترافها أبدا. . .

لم يجر أي حديث في شأن (عصمت) في زيارة من تلك الزيارات العديدة، ولم تذكر على لسان أحد بزواج، بينما تلح الخواطب إلحاحا شديدا في طلب (لمعان) فلم هذا العناد جريا وراء سراب خادع ووهم باطل؟

ولو أن سهما أصاب فؤاد (عصمت) لما تألمت كل هذا الألم الذي اعتراها عندما صك سمعها هذا الكلام. أي بلية

جديدة وأي نكبة.!؟؟ أتكون عقبة في سبيل إسعاد أختها؟ لقد شربت كأسها وحدها صابرة محتسبة، فهل تكون سببا في شقاء غيرها. .؟؟. لا. إن هذا لن يكون أبدا

هذا ما تحدث به ضمير (عصمت). أما أبوها فأخذ يقول لأمها:

تحاولين عبثا إقناعي بزواج (لمعان) أولا، وإني لأفضل تضحية الاثنتين على أن أرى كبرى بناتي تموت غما، وأكون مع القدر عليها

واستمر في حديثه و (عصمت) ترتجف خلف الباب تأثرا، ولم تستطع كبح جماح عواطفها طويلا، فاقتحمت الباب عليهما صائحة:

كلا يا أبتاه. إن (عصمت) لن تتزوج، فهي لم تخلق للزواج؛ أنها دميمة، ولن يبحث الأزواج عن الدميمات، ارحمها يا أبتاه، ولا توقفها ذلك الموقف المؤلم، ودعها تحيا في ظلك ما قدر لها، إنني بائسة فلا تجعلني حائلا بين أختي وبين سعادتها ومستقبلها، وأجهشت باكية، فبكى أبواها رحمة بها وإشفاقا عليها.

مـرت الأيـام ولـم يجـد الأبـوان أمـام إلحـاح (عصـمت) وإصرارها بدا من زواج (لمعان)، وقد اغتبطت عصمت لذلك اغتباطا شـديدا، وكانـت تـرى في خدمـة أختهـا وزوجهـا بعـض السلوة.

انقطعـت زيـارة الخواطـب منـذ تزوجـت (لمعـان). ونـاءت (عصـمت) بعـبء مـا مـر بهـا مـن خطـوب، فأصـبحت وهي في عقـدها الثـاني كأرملـة في الثمـانين، وقـد زهـدت الحيـاة وملتهـا حتى وضعت (لمعان) طفلا جميلا فاتخذته ولدا لها، ولم تكن لتتركـه لحظـة واحـدة، جعلـت لـه مـن صـدرها مهـدا، ومـن عنايتها حارسـا فشـب على حبها، ووجـدت لـذلك بـرد الراحـة، فحببـت إليهـا الحيـاة، وكانـت تعتقـد أنهـا جوزيـت على جميـل صـبرها خير الجـزاء حينمـا تـداعب الطفـل فيطوقهـا بذراعيـه الصغيـرتين، ويغمـر وجنتيهـا الجـافتين اللتـين لـم يسـعدهما الحظ لثما وتقبيلا وهو يقول: خالتاه. . . ما أحلاك يا خالتاه.!

باقة زهر

إن لبعض المناظر تأثيراً عميقاً خاصاً في نفس الإنسان لا يشاركه فيه غيره من المناظر، لو أنني شهدتها في زمان غير هذا الزمان، أو في مكان غير هذا المكان.

لقد سحقتني المدينة بجلبتها وضوضائها، ففررت بفكري المجهود وعقلي المكدود إلى قرية قائمة في وسط صحراء هادئة نائمة لأداوي بسكوتها فكري الثائر. وكنت في كل يوم ألقي بنفسي في أطهر ضواحي القرية من أنفاس الناس، فأستنشق فيها رائحة الطبيعة الجميلة تحت أشعة شمس الربيع التي كانت تسيل بغزارة من بين قطع السحاب، فتحرك النفوس الجامدة وتثير القلوب الخامدة.

كان يمر بتلك القرية نهير براق ينصب فيه الماء من بين أحضان تلك الجبال الشماء، فاذا انحدر منها إلى السهول بصوت جذاب يشبه الصوت الذي ينبعث من مجلس مجالس السرور جرى متغلغلاً بين الأحراج والغابات، متوارياً عن أشعة الشمس التي ملأت الأرجاء وطغت على الأنحاء، فاتراً هادئاً حابساً أنفاسه في صدره، كأنه فتاة عاشقة تسير

نحو غايتها في لطف حتى لا يسمح خشخشة ثوبها سامع، ثم يجتمع شيئاً فشيئاً ويزج بنفسه في مقبرة تظللها أشجار السرو العاتية، وتنبعث منها روائح الموت القاسية، فتبعث في النفس ذكرى الدار الآخرة، وتوقظ في القلب عظمة الموت ورهبته، فاذا تجاوز هذه المقبرة سار في جريان بطيء فاتر مدفوعاً بقوة لا يمكن مقاومتها ولا يستطاع دفعها، مبتعداً عن الجبال والأحراج والصحارى حتى يغرق بحرقة الخسران وألم الفقدان في بحر لجيٍ لا يسبر غوره ولا يدرك قراره

وكثيراً ما كنت أتبع في سياحتي مجرى ذلك النهير، فأسير على ضفته مأخوذ اللب، موزع الفكر في أمواجه الضحاكة التي تنيرها أشعة الشمس اللماعة، وضفاته الحزينة التي تظللها الأشجار الملتفة، فتنشر عليها بساطاً من الكدر والحزن، وكم حبست سمعي على زمزمة مياهه اللطيفة تداعب الأحجار القائمة في طريقها بلطف، وتلامسها في غير عنف، وعلى نقيق ضفادعه تستقبل بواكير الربيع الضاحك، وكم غرقت في هذا وذاك غرقاً لا أخرج منه إلا بعد سفر طويل. هناك في ذلك المكان رأيتها، وكان ذلك في يوم ملول فاتر، والضباب المعطر النفحات الرطب الذرات يتطاير رويداً

رويداً فوق ذري الجبال. ثم ينتشر في السهول والقيعان والآكام والوديان فرحاً بالربيع الغض النضير، باعث الحياة في الأموات.

أما المناظر البديعة التي كانت تمتد بامتداد البصر، وتسترسل على قدر ما يبلغه النظر، فقد كانت تؤلف بصورها المتنوعة سلسلة من البدائع، تتجلى في طيف الخيال كأنها عالم من العوالم الشعرية المبهمة، وتظهر في صورة خيالية لو مرت بها نسمة من النسمات الفاترة لذهبت بها أباديد.

إن في سكون الصحراء العميق نفساً عميقاً لا يكون إلا في سكون الصحراء، إنه سكون حي قوي الحياة، لو نظرت إليه بدقة وإمعان لخيل إليك بقوته أن الطبيعة تتنفس كما يتنفس كل ذي روح.

لقد طفت كثيراً في النواحي أمتع النفس بالنظر إلى الضباب القائم يطير بين تلك الجبال كأنه الدخان، والى الزهرات الناضرة سقطت عليها حبات الندى فارتجفت تحتها ومالت أعناقها لثقلها، وأصغى إلى الأطيار على الأشجار تتغنى

في هدوء بأصوات مملوءة بنشوة الطرب وسكرة النشاط، وبلغت من لك كله ما أريد.

لقد أحيت في نفسي تلك الحال الجذابة، وتلك المناظر الخلابة، وتلك النزهة الواسعة الأطراف، المترامية الأكناف، روحاً جديداً، وأثارت رغبة كامنة، فكنت أقف أثناءها وقفات تسكن فيها الحواس، ويذهب الفكر إلى أبعد مداه، لقد كنت مأخوذاً أمام تلك الطبيعة التي تغرق الفكر، وتشتت اللب، حتى يكون التفكير ذهولاً، لقد كنت مأخوذاً بسبب ذلك الشعور الأخاذ الذي يفوق كل شعور حتى يجعل من الإنسان الحساس جماداً لا يتحرك ولا يحس.

لست أدرى لماذا أبحث عن هذه الأشياء ولماذا أتكلم عنها؟ وليس لها من صلة بالحادثة التي أثارت أحزاني وحركن كوامن أشجاني وحرمتني حتى من نفسي أياماً طوالاً، أجل لا أدري، ولكني أريد أن أقول إني رأيت فصول تلك الرواية المحزنة وأنا أشد ما أكون تأثراً بهذه المناظرة وخضوعاً لها، فزادت رؤيتها تأثري حتى وصلت آثارها إلى أعمق نقطة في نفسي.

سمعت ذات يوم من تل الأيام التي قضيتها في تلك القرية وقع أقدام يكاد يخفي على الأذن لضعفه، فالتفت فعلقت عيني بفتى وفتاة قلما علقت عين بمثلهما جمال خَلْقٍ ولطف خُلقٍ، لا يتجاوز أكبرهما وهو الفتى الثانية عشرة من عمره، ولا تقل الفتاة عنه إلا عاماً أو عامين، كانت الفتاة وهي تبكي بلا عبرات وتئن بلا حسرات، أما الفتى فكان على عكس حالها يطفح نشاطاً ويفيض سروراً، مع أن على وجهه سحابة. . . لا أردي ماذا أسميها؟

ولا أدري كيف أعبر عنها؟ هي كالتي ترى على بعض الوجوه التي رشقها الموت بسهم من سهامه في بعض من يعز عليها، فطبعها بطابع أغبر قاتم يدل على ما في الجنان من هموم وأحزان، فلما رأيتها على ما وصفت، شعرت بألم في أعماق نفسي ذهب بكل ما فيها من نشوة وطرب

كانا يمشيان رويداً رويداً؛ فالفتاة مستغرقة في أفكارها، مسترسلة إلى أحزانها، وأما الفتى فقد كان يبتسم ابتسامة عذبة كأنه ثمل من حمرة الربيع الجديدة

علقت عيني بهما حتى ما كنت استطع أن أحولها عنهما، كأن دافعاً خفياً يدفعني إلى ذلك ويفرضه على فرضاً.

حاذباني، وتجاوزازني، ولعلهما لم يشعر بمكاني، أحدهما مشغول عني بافراحه، والآخر مأخوذ باتراحه

وبينا أنا في ذهولي العميق إذا بقاتل يقول:

- فيماذا تفكر؟

كان المتكلم طبيباً من أصدقائي يتبع الطفلين، لا أذكر ماذا أجبته على سؤاله، ولكني أدركت بعد أن مر الطفلان من أمامي أن ضحية ثمينة قد مرت بي

صادفت الطبيب في اليوم الثاني منفرداً فقلت له:

- من هذان الطفلان اللذان كنت تتبعهما أمس؟

فأجابني وهو يلوي شفته:

- هما شقيقان

قلت:

- ومريضان؟

فقال:

- (أحدهما فق والثاني لا حق بع عما قريب ولابد، لأن مرض الثاني لا يظهر إلا بعد أن يتلاشى المريض الأول، إن الفتى لن يحتمل هذا المرض أكثر من شهر آخر، وإذ ذاك فلا بد من معاينة الفتاة)

ثم استمر قائلاً:

- (لعلك قد لاحظت أن الفتاة تعلو وجهها سحابة حزن كثيفة وان طورها طور مكتئب شديد الكآبة، فهل عرفت منشأ ذلك؟ منشؤه الخوف، إن الفتة لا تفقه ذلك من أمر هذا المرض الذي نزل بأخيها شيئاً، وأني لها أن تفقه ذلك وهي لا تزال طفلة؟ ولكنها مع هذا تعلم يقيناً أن أخاها معرض لخطر شديد محدق له، أنها تسمع كل يوم من أفواه الناس هذه الكلمات فترسخ في قلبها الصغير وتترك فيه أثراً من الخوف:

كيف حاله اليوم؟ هل عاودته النوبة؟ كم درجة حرارته اليوم؟

وهي في كل يوم أيضاً تسمع من أمها هذه النصيحة مئات من المرات:

اجلسي يا فتاتي بجانب أخيك، لا طفيه، لا عيبه، لا تؤلميه، إن أخاك لا يحتمل ذلك.

إن هذه الجمل والعبارات تطرق مسمعها كل يوم مرات عديدة فتترك في قلبها الحساس أثراً عميقاً كله خوف ووجل، ومع ذلك فكثيراً ما رأت والديها وهما يمسحان دموعهما

خفيـة، وكثيـراً مـا رأتهمـا بعـد أن يخرجـا مـن غرفـة أخيهـا المريض يحتضنانها ويقبلانها قبلات حارة، ثم تضمها أمها إليها بحرارة كأنها تود المحافظة عليها من عدو يريد اختطافها بعد أن نفضت يدها من أخيها، فهي لذلك تشعر من سويداء قلبها الصغير بخوف ووجل لا تفقه منشؤهما ولا تعرف مأناهما، وهي لذلك حزينة كئيبة. وأما المريض الحقيقي فانه طروب فرح مملوء نشاطاً ومرحاً، لقد كان حتى الآن محبوساً في البيت، محروماً من التمتع بالطبيعة، فلما أطلق سراحه عاد دمه إلى الغليان بأشعة شمس الربيع المزدهر، وهذه دورة من دورات السل مخيفة، لأن المريض فيها يظن نفسه قد شفي من المرض، مع أن ذلك النشاط هو القوة الباهرة التي تعتري الذين يقفون على أبواب الموت، وهو آخر مظهر تظهره الحياة وتنفق فيه أقصى ما عندها من جهد، وإذ ذاك نقول لأهل المريض خذوه إلى النزه. . . دعوه يلعب في الشمس ويرتع في الهواء الطلق. . . فهذه الكلمات تعلن للأهل بلطف أنه لم يبق من حاجة إلى الدواء بعد أن وقع اليأس من الشفاء، فهاهم الآن يرسلونه ليلعب في الهواء الطلق كل يوم، وليأخذ قسطه من مرح الطبيعة، ولينال حظه من

حرارة الشمس الساطعة ليمتع نفسه بما قضي عليه أن يحرم منه قريباً)

جلست اليوم كعادتي عند النهر أفكر، فكانت أفكاري كلها متجهة نحو هذين الطفلين! لقد كانا محور تخيلاتي وتأملاتي في هذا اليوم، فلا أرى سواهما، ولا يمر ببالي شيء غيرهما

أصبحت أرى الطفلين كل يوم، وكنت إذا وقع نظري عليهما علق بهما حتى لا يكاد يتحول عنهما، وكأني كنت أشعر أن صوتاً بهما حتى لا يكاد يتحول عنهما، وكأني كنت أشعر أن صوتاً داخلياً يهتف بس قائلاً:

- تأمل هذين الوجهين المحاطين بالشعر الأشقر إحاطة الهالة بالقمر، إنك سترى تلك الطفولة الغضة قد جمدت ويبست فيهما كما جفت الزهرة قبل أن تتفتح عنها أكمامها، وسترى على شفاههما الذابلة ذبول الزهرة لفحتها السائم، رعشة تشبه رعشة المحتضر

أما تلك العيون الحزينة فقد كانت في ذلك الربيع الضاحك مدفناً لجميع الآلام، أسفاً على ربيع حياة عصفت به يد الخريف وتودع كل آمالها في الحياة مع شدة حرصها عليها، تودعها بشعر حزين باكٍ تنظمه نظراتهما الحائرة،

وترجمة أنفاسها الفاترة. المرض بعد، والفتى الذي برح به الداء، يمشيان جنباً إلى جنب، وقد أخذ كل منهما بيد الآخر، مشية الحزين الذاهل.

رأيت الفتاة في أحد الأيام وهي مكبة باهتمام على أخيها تزرر معطفه خوفاً عليه من البرد، فقلت في نفسي ما أشقاكما أيها الطفلان. . .

كان الفتى في آخر مرة رأيته فيها مصبوغ الوجنتين بحمرة هي حمرة السقم لا حمرة العافية، وفي تل المرة سمعت أخته تقول له بصوت حزين:

- لقد أسرفت في الركض يا أخي فأخذك العرق وها هو السعال يعاودك ويأخذ بخناقك

ويجيبها الفتى وهو يبتسم لها ابتسامة عذبة ويحاول أن يحبس سعاله:

- نعم لقد أسرفت في الركض كثيراً، ولن أعود

خرجت إلى النزهة بعد أيام وأخذت أجمع ما راق عيني وأحبته نفسي من الأزهار الجميلة التي أتحفتنا بها الطبيعة لتجلبنا إليها، فجمعت باقة جميلة فيها من كل لون حسن، ومن كل رائحة لطيفة، ثم رأيت زهرة زرقاء اللون، قد نبتت

على حائط المقبرة بين الأحجار، فمددت يدي لأقطفها، فاذا بيد قد وضعت على كتفي، فالتفت فاذا صديقي الطبيب، فقلت له:

- أهذا أنت؟

- نعم فإلى أين تريد؟

- لست أريد مكاناً معيناً، إنما أنا في نزهة أداوي بها نفسي ولا أدري متى يكون الشفاه؟

ثم ذكرت الطفل المريض، فقلت له:

- ما شأن مريضك اليوم؟

فأخذ الطبيب بيدي وسار أمامي حتى وقف على باب المقبرة وأشار بيده قائلاًك

- ها هو ذا. . .

نظرت بحيرة، فاذا الطبيب يريني قبراً جديداً ث أضاف قائلا:

- ما كنت مخطئاً في ظني. إن الفتى قد قضى بحبه منذ يومين، وقد دعت الآن لمعالجة الفتاة، وها أنا ذاهب إليها

ابتعد الطبيب عني، ووقفت في مكاني كالصم لا أتحركن إن هذا القبر الجديد تحت سماء الربيع الصافية المملوءة

بالحيـاة والنشـاط يـدل على معنى مـؤلم، فنظـرت طـويلاً واستعبرت كثيراً، فكأن صوتاً من داخل القبر يقول:

- انظروا متأملين إلى هذه الأنوار التي تفيض من السماء فيضـاً! والى الحيـاة تسـح مـن أجـواف الربيـع المزدهـر سحاً، ولكني محروم من هذا وذاك. . . آه افتحوا قبري! افتحوه. . . لأشـاهد أنـوار السـماء وأضـواءها، ولأبصـر فـوران الحيـاة وغليانها

بحركة لم أتعمدها، ولم أقصد إليها، ألقيت من يدي تلك الباقة من الزهر، على ذلك القبر، الذي كانت تشرق عليه شـمس مـايو الحـارة، وفـررت مـن ذلـك المكان لا ألـوي على شيء، وبقيت بعد ذلك الموقف سنين عدة مشتت الفكر، مشرد اللب، أنشد نفسي فلا أعثر عليها، ولا يرشدني مرشد إليها.

النارُ المُوقَدَة. . .

أثبتت مرفقيها فوق المنضدة، وأسندت رأسها بكفيها وعيناها السوداوان شاخصتان نحو نقطة مجهولة وهي تفكر، وكان نظرها الحاد يرسل شعاعاً زاد لمعانه سواد المقلتين ولون الكحل والحالك.

وها قد مضت بضع دقائق بدون أن تمس شفتاها هذا القدح البلوري وتذوق هذا الشراب السائغ.

لمَ كانت غارقة في بحر عميق من التفكير؟ وما الذي كانت تفكر فيه؟ وما عسى أن يدور في هذا الرأس المتوج بالشعر الأصفر المقصوص على آخر (مودة)؟ وهل هي كاذبة حتى تفكرها العميق يا ترى؟ وهل يحاول هذا الرأس أن يخدع نفسه أيضاً؟

نظرت إليها نظرة الفاحص المدقق، فوجدتها قد غيرت شكل حاجبيها بالنقوش والتخطيط الأسود فحرمته تلك الصورة الطبيعية التي صورها الخالق فيها. أما الحمرة التي تبدو على وجنتيها فلم تكن ذلكم اللون القرمزي الذي ابتدعته يد القدرة فيها، بل كانت مفعول الأصباغ، وأضاع

هـذا أيضـاً شـكله الطبيعي. ونظـرت إلى شـفتيها فـإذا لونهمـا لـيس ذلـك اللـون القـاني الـذي أودعتـه يـد القـدرة في شـفتي حـواء!. . ثـم اسـتمعت إلى حـديثها فـإذا صـورتها لـيس ذلـك الصـوت الملائكي الـذي كانـت تنـاجي بـه أمهـا وهي في المهـد صبية، بل يكاد يكون خشناً من تأثير الخمر والسهر.

- فيم تفكرين؟

ظلـت جالسـة في مكانهـا لا تتحـرك ولا تتململ ولـم تجـب على سؤالي هذا بغير أنّة طويلة.

- أوه. . .

ولو كان بين ذرات الهواء بارود لأشعله هذا الشهيق الـذي خرج من صدرها كما يشتعل الغاز إذ تمسه نار.

- إنك تتألمين هذه الليلة.

- إني أحب. . .

- أوَ تحبين أنت؟

وكانت لا تزال محافظة على هيئتها. .

- إنك لا تصدق ذلك، أليس كذلك؟

كانت جالسة معي كي أنعم عليها بثمن شرابها، وكنت أعرفها منذ أمدٍ بعيد. . . منذ صباها، ولم تنس أن تفاتحني ساعة أن اقتعدت مقعدها بجانبي بعزمها على الشرب بقولها:

- أريد أن أشرب اليوم.

ولم أرفض رجاءها هذا فأمرت لها بقدح من الشراب لا إكراماً لسواد عينيها ولا حباً بجمالها، بل شفقة عليها ورحمة بها، فلقد كنت أراها كئيبة حزينة هذه الأيام.

- ومن تحبين؟

فرفعت رأسها من بين يديها كمن أفاق من ذهول عميق وأجابت:

- إن من أحبه (نكرة).

وكأن سؤالي هذا قد أثار منها سراً دفيناً وهاج لها ذكرى أليمة حتى راحت تحرق الأرم وتهدد الهواء بقبضتها كمن يتوعد أحداً. . . فتفرست في وجهها ملياً.

فدمدمت بكلمات غامضة. . .

- لِمَ تتفرس في وجهي هكذا كأنك تعرفه؟ أو كأنك تقول لي بأنه (معلوم) لديك! إنه (أحد النكرات)!. فلا تتعب نفسك في معرفته سدى!

قالت ذلك وأنشبت أظافرها الحادة في خديها من فرط تأثرها وابتسمت ابتسامة الحزين طفح كأس اصطباره:

(هو أحد (النكرات) أما إنه لم يكن كذلك؟ فلأن هؤلاء (النكرات) يفهمون أقوالنا ويتكلمون مثلنا ويشعرون كما نشعر. ويرون كما نرى! أما أنتم! فإن تكلمنا معكم اضطررنا إلى أن نزن كلامنا كلمة كلمة وقلوبنا تخفق رعباً، خوفاً من أن تعثر ألسنتنا وتلفظ كلمة سهواً فنصبح أضحوكة في نظركم! وإذا تكلمتم أنتم أصغينا إليكم بكل حواسنا حتى نفهم ما تقولونه. . . وترانا نعمل المستحيل حتى لا نظهر أمامكم بمظهر الجاهل الغر والأحمق البليد! ولا أقول أنتم معشر (المهذبين) المثقفين - لا تحبوننا نحن معشر النساء، كلا فأنكم تحبوننا ولكنكم تريدون من (المرأة) أن يكون شعورها وعواطفها جميلة، مصبوغة، مزينة، رقيقة كوجهها وشفتيها وأظافرها! ولا تكلفون أنفسكم مشقة فهم المرأة، وإنما تريدون من المرأة أن تفهمكم!

- أو تحبين؟!

وكان صوتها اضطراباً كلما ازدادت حزناً

- (لقد أصبت في سؤالك هذا!

- وكيف أصبتُ في سؤالي؟

- لأنك عنيت به الحقيقة. . أيمكن أن أحبّ أنا، أو نحب نحن؟ حقاً أنحب نحن؟ أو تصدق أنت ذلك؟ لقد سألت نفسي مراراً. . فلقد تمرّ من أدمغتنا أفكار عوجاء وهوجاء، وترينا الأيام حوادث عصيبة رهيبة تدك أعصابنا دكا فتجعلها واهنة القوى ضعيفة التفكير معدومة المقاومة تفقد معها خاصة التفريق بين الشعور الذي نشعر به من صميم القلب، وبين الإحساس الذي نحس به لمجرد اللهو والعبث، وفي أيهما نحن صادقون. . . ومن ثم أنتم!. . . آه منكم!! قالت ذلك وصرت أسنانها وضربت الأرض بقدميها كمن يحاول أن يسحق شيئاً سحقاً، أو يقطعه إرباً إرباً. نحن نخدعكم ما دمتم على وجه البسيطة ونسيء إليكم دواماً. أليس كذلك؟ ولكن ماذا تقولون في الإساءة التي تسيئون إلينا بها أنتم معشر الرجال؟

أكبر الإساءة التي تُرتكب نحونا هي إساءتكم. . نصدُق لكم قولاً وفعلاً فلا تثقون فينا! وإذا ما أحببناكم فلا تصدقوننا! نقسم لكم الأيمان المغلظة فلا تؤمنون بنا!! وتشتبهون حتى في طعامنا وشرابنا! والشبهة مرض يسري

أيضاً وينشب أظفاره فينا، ونأخذ نشتبه حتى في أنفسنا فنحب، فتأتي الشبهة على بالنا فتحملنا على الشك في حبنا هذا! وتنغص منا العيش. . وتتسع دائرة الشبهة هذه فلا نثق حتى في أنفسنا!

تحسبون أننا نحب من أجل المال. أو يظهر أننا نحب من أجل المال! وأضرب لك مثلاً. . أنا ذلك المثال. فأنا أيضاً امرأة أحب من أجل المال، أليس كذلك؟

قالت ذلك وتوقفت عن الكلام ومدت يدها إلى القدح الذي كان أمامها فشربته إلى الثمالة.

لم يصدقوا أنني أحب حقاً. . . وهذا الرجل الذي أحبه أيضاً يعطيني كل ما يربحه من عمله وأرد له عطاءه. فيصرّ هو أيضاً. . . يظن أنني ما أحببته إلا من أجل المال! هو أيضاً. . . هو أيضاً. . .

وكانت أكتافها تهتز من شدة انفعالها.

حيث أننا لا نحب. . وأن قلوبنا قدت من صخر. . أو أنها لا تعرف للصدق معنى وحبنا كاذب. . وأن أساسنا كاذب. . .).

وكانت عيناها تنظران نحو الباب. . وما كادت تلفظ الكلمة الأخيرة من كلامها حتى هبت مذعورة تطلب مني السماح لها بالذهاب.

- أستميحك عذراً، ها هو قد جاء. قالت ذلك ومدت يدها تصافحني وعيناها شاخصتان نحوه، فودعتها وأنا أنظر إلى القادم أتفحصه. . نظرت ملياً فرأيت (الخطاط) الأسود قد كسا حاجبيها لوناً غير اللون الطبيعي، ولعب (المنقاش) فيه فأضاع بلعبه ذلك الشكل الطبيعي الإلهي. . .

وهذا اللون القرمزي الذي يعلو خديها ليس ذلك اللون الذي أودعه الله في الوجنات. . .

ونظرت إلى شفتيها فما رأيت فيهما تلك الحمرة الطبيعية التي تحاكي الدم القاني. . واستمعت إلى صوتها فإذا به قد فقد حلاوته، وليس بذلك الصوت الملائكي الساحر الذي كانت تنادي به أمها وهي في المهد.

وشيء واحد لم يتغير فيها، ذلك هو عيناها!. . .

لقد كانت عيناها تشتعلان بنار الحرص كما اشتعلت عينا حواء حينما نظرت إلى آدم لأول مرة. .

الزامر الأعمى

كنت أرى هذا السائل الضرير، يتأبط ذراع قائده، وفي يده قصبة عتيقة، ينبعث منها صوت قوي، كأنه النواح في المأتم. ويمر به الناس فيقفون ويستمعون رحمة به ورثاء له. ثم يلقي كل منهم إلى كشكوله البائس الذليل خمس بارات أو عشراً.

كان يبعث أناته في قصبته المرضوضة فينبعث إلى أذنه في رنين العشرات والخمسات صدى البشرى، ورسالة المودة، رنات لا تفنى في أنين الناي الحزين، ولكنها تؤلف نغمة أخرى تسايره. كم أحزنني هذا الصوت! وكم أمضني ذلك المرأى الأليم!

إنه من دهره في ليال متتابعة مديدة، لا يتنفس في آفاقها المظلمة صبح، ولا يلوح في وجهه لمحة من النور، تحدث عن بسمات الرجاء والأمل. كلا. إن هذا لوجه الأغبر، هذا الوجه التعس قد أقتمت فوقه سحب متراكمة من الشقاء: ماضيه ظلام، وظلام مستقبله. سله عن الحياة فهي حقيقة مظلمة مديدة. تراها نظراته حجابا من الظلمات دون حجاب. أنه لا

يبصر المصائب، ولكن كل شيء حوله مصيبة، يمتد به العمر الشقي في هذا العالم البائس، ويتحسس ظلامه الذي ما ينتهي فلا يظفر بطريق تخرجه إلى صبح الأمل المسفر.

وعلى كتفيه مزق من عباءة بالية قد اتخذها مجنا في عراك الأيام، ولكن يد الريح العابثة تنازعه هذا الستر كلما هبت، فتكشف عن كتفيه، وتلقي بصدره أمواج المطر والبرد.

بينما أخرج السوق بصرت بسائل يبعث أنينا حزينا، وهو متكئ على أحجار تغشاها أوحال. وتحته حصير أبلاه مر الأيام ولا يظله إلا طنف (سبيل) هناك. ولكن صوت الناس لا ينطلق الآن بعيداً، وإنما سمعت عن كثب صدى كنسيس المحتضر.

ليت شعري أكان يزمر لنفسه أم كان يئن؟ لا أحد يسمع له! ولا أحد يقف عنده! ولكن المارة يلقون إليه بنظراتهم ثم تمضي بهم السبل. ومن ذا الذي يصيخ إلى صدى تلفظه المقابر؟ أيها المسكين! وطّن على الموت نفسك! واقطع أنات الشكوى. لا لا. أصخ! قد سمع في الكشكول رنينا مديدا! يا لها نغمة من الرجاء مطربة! يا لها بشرى أستمع لها القلب والأذن معاً.

الماء يخترق الطنف، فينسكب المطر من ثقوبه فيضرب الكشكول البائس! سمع الأعمى الصوت فحسبه نبض الرحمة قد جاشت به قلوب المارة. فمد يده، مدها إلى الكشكول، ولكن هيهات! قد خاب رجاؤه، وكذب ظنه، ارتدت يده المتجمدة من البرد! ارتدت إليه فارغة مبتلة!

قبر من الأوحال

قد مضى عليه الآن بعض سنوات وهو يخرج كل صباح حاملاً هذه الرسائل التي تملأ حقيبته

أنه تعب من هذه الحياة، وسئم جر ساقيه المتعبتين من كثرة المشي من إفريز إلى إفريز يتلمس الأبواب

نعم بلغ به الملل والسأم الآن حد النفور من توزيع هذه المزق من الأوراق التي تأتي من كل ركن من أركان العالم وتقتضيه الجولان من شارع إلى شارع ومن باب إلى باب

مضى عليه الآن أمد طويل وهو على حاله هذه: يحترق تحت أشعة الشمس اللافحة وتكاد أنفاسه تتقطع من حر السموم التي تقذف باللهب كأنها فيح جهنم

وفي الشتاء يتلقى ميازيب السماء التي تغسله من فرقة إلى قدمه. ويجر رجليه اللتين كاد يفتهما البرد وسط الأوحال

إنه كره التسكع في أزقة هذه المدينة العظيمة التي لا حصر لها. كما كره منظر حقيبته التي لا تفارق جنبه. نعم إنه سئم السير آلاف الخطوات كل يوم ليوصل الأخبار إلى هذا وذاك

سنين. . .! إن سلسلة أيام هذه السنين الطويلة الخالية من الإنصاف قد مرت عليه وهي تنزل به الضربة تلو الضربة في كل يوم. وتحطم آماله وتهدم صرح أمانيه وتدفنها في الرغام. مسكين! إنه لا يكاد يجد بعض الراحة والهدوء لأعصابه المحطمة في ظلمة الليل حتى تقول له الشمس التي تشرق في مطلع كل نهار:

(إنك اليوم أيضاً - كما كنت أمس وكما كنت في كل الأيام الخالية - موزع بريد وستبقى كذلك ما دمت حياً)

آه من هذه الحياة المريرة التي حكم عليه أن يقضيها متسكعاً الساعات الطوال ليجد شخصاً من الأشخاص، يبحث عن أرقام المنازل تارة، ويسأل أصحاب الدكاكين والحوانيت عن اسمه تارة أخرى. ويسير بخطوات مضطربة في منحنيات هذه الشوارع والأسواق التي لا نهاية لها

هاهو ذا قد ثارت ثورته على الحياة وانفجر بركان نقمته من جراء هذا المطر الغزير الذي لا يرحم، والذي ألصق أثوابه المبللة بعظامه ونفذ من حذائه الممزق إلى جواربه

إنه لم يرى حاجة إلى الاحتماء في مكان ما ولم يحاول الهرب من هذا المطر المنهمر وكأنه يريد مطاردته - حتى

يخفف بعض أذاه عنه. بل جلس على حافة أحد تلك الحوانيت المغلقة وأخذ يتأمل هذه الطبيعة الثائرة. هذا الشارع الذي يخيل لناظره - من هول المطر وشدته - أنه أمام نهر من أنهار جهنم إبان فيضانه. هذه الأوحال التي تغلي وتقذف بحباب أسود من شدة وقع قطرات المطر. وبينما هو في تأملاته رأى أولئك الذين يسيرون في سكون ودعة مستظلين بمظلاتهم من غير أن تلوث الأوحال أرجلهم، ولا أن تبلل الأمطار أثوابهم. ثم رأى تلك السيارات التي تشق الأوحال وتسير مندفعة كالسيل. لا جرم أن المطر لم يكن له أثر بالنسبة إلى هؤلاء وأولئك. إن أصحاب هذه المظلات وإن أرباب هذه السيارات هم أصحاب هذه الرسائل التي تملأ حقيبته. من يكون هو وما قيمته ومقداره بين هؤلاء وأولئك في وسط هذه الحياة الصاخبة؟ هل جاء إلى هذه الدنيا لمجرد حمل رسائل هؤلاء السادة وتبليغها إليهم؟

إنه لم يعد ينظر إلى الشارع وما فيه، بل حول نظره إلى قطرات الماء التي كانت تتساقط حوله من أطراف ملابسه الممزقة، والى حذائه الذي يخيل لرائيه أنه ينتحب تحت نقاب من الطين!. . .

آه من هذه الرسائل! هذه الأشياء التي تأتي من أي إنسان وتذهب إلى أي إنسان!. . .

كان المسكين في حاجة ملحة إلى رسالة من هذه الرسائل، لأنه لم يتلق رسالة خاصة مدة حياته كلها، بل كان مكلفاً برسائل الآخرين فقط. كان وحيداً لا أهل له ولا أقرباء فأنى له بكتاب يأتيه أو ينتظره؟

وكان كلما فتح هذه الحقيبة التي تملأ كل يوم وتفرغ أو أقفلها أرسل من أعماق قلبه آهة حزينة طويلة. كان يتحسر على هذه الأشياء التي تمر بين يديه كل يوم من سنين طويلة ويتحرق شوقاً إليها. ماذا كان يحصل لو أن أحد هذه الرسائل ـ في الفينة بعد الفينة ـ كان باسمه وله خاصة؟ لا جرم كانت تكون نوعاً من التسلية تخفف بعض أعباء الحياة عن كاهله

ماذا في هذه الرسائل، وما هي الأسرار التي تخفيها في طياتها؟ إنه يعرف سيدة تنتظره دائماً في مدخل منزلها في زقاق بعيد طويل، لأنها كانت تتلقى رسائل من ولدها

ويعرف فتاة في كلية الطب تأخذ كل أسبوع ثلاث. أو أربع رسائل دفعة واحدة. وكان يراها دائماً تسارع إلى غلاف ارجواني وتفضه دون بقية الرسائل ويداها ترتعشان.

وعلى مر الأيام ألف هذه الرسائل وكسب شيئاً من المرانة من طول التكرار وكثرة الممارسة، فأخذ يفهم أسرارها ومحتوياتها المختلفة، فكان يعرف مضامينها من خطوطها تارة ومن أسماء أصحابها تارة أخرى. ومن ألوان أغلفتها والروائح المنبعثة من أوراقها المعطرة في بعض الأحيان

نعم بدأ يعرف هؤلاء الذين يتبادلون الرسائل فيما بينهم، أولئك الآباء والأبناء والأزواج والزوجات

وهؤلاء الشبان من الفتيان والفتيات الذين يتبادلون عواطف الحب ويتساقون أكؤس العشق والغرام

نعم أخذ يفهم أولئك الذين يمرون أمامه بمظلاتهم وسياراتهم من غير أن يكونوا مثقلين مثله بحقائب مملوءة برسائل الآخرين. . .

كان يفهم كل السادة أصحاب هذه الرسائل اللعينة وكان في نفس الوقت يشعر شعوراً قوياً بأنه الوحيد الذي لاحظ

له من نعيم ولا نصيب من راحة وسط هذا العالم الصاخب وبين هؤلاء السادة المترفين المنعمين

كان بائساً حقاً. فلم يكن له أن ينتظر وصول رسالة باسمه من أحد في يوم من الأيام

وعند ما وصل إلى هذا الحد من تأملاته وخواطره كان المطر لا يزال يتساقط بشدة فوق طربوشه المبلل وتنحدر قطراته إلى وجنتيه فتملك هذا الموزع المسكين البائس هذا القلب الحزين. هذا الذي فقد كل أمل في الحياة تملكه شعور قوى من اليأس العميق والألم المبرح والحزن الشديد. وتمنى لو يستطيع اقتلاع هذه الحقيبة التي تحفظ رسائل الآخرين من على عنقه وقذفها في الهواء. هذه الحقيبة المعلقة برقبته بسلسة لا تطاق كأنها - لثقلها – تريد أن تجتذب رأسه إلى أسفل حق تلصقه بالأرض

إنه يتمنى أن يدوس هذه الحقيبة برجليه حتى تتمزق إرباً إرباً وتنسحق سحقاً!. . .

وبعد ذلك يرجو - لينال بعض الراحة - أن ينغمس في هذه الأوحال التي تنشق كالقبر ثم تلتئم كلما خاضها خائض.

نعم هنا وفي هذه الأوحال يريد أن يمد رقبته تحت عجلات السيارات ويموت

يريد أن يدفن في هذه الأوحال

إنه يتمنى قبراً من الأوحال

أين المدفع؟!. . .

كانت المدافع والبنادق تنطلق وتقذفهم باللهب من كل جهة بين دوي متواصل. وانطلقت من بين الجبال التي قبالتهم قذيفة وطارت في الفضاء تخترقه بسرعة البرق، ثم هوت على الأرض فكان لسقوطها القوي السريع دوي شديد هز الآفاق هزاً عنيفا. ثم قذيفة أخرى فثالثة فرابعة. . . قذائف لا حصر لها ولا آخر تمر من فوق الرؤوس وتتساقط حولهم. تلك السلسة التي لا تنقطع من نذر الموت والهلاك

لم يكن هؤلاء إلا فصيلة من الجند معها مدفع واحد تصعد به في سفح جبل شاهق شديد الانحدار، مخيف المنظر. كانت هذه الفصيلة تقتفي أثر ضباطها وسط ركام متراكب من الضباب، مسترشدة ببريق ظبات السيوف في أيدي الضباط السائرين في المقدمة.

كانوا يتسلقون الجبل القائم أمامهم، بكل ما وسعهم من جهد وبلاء. مستعينين على ذلك بأيديهم وأظفارهم بل وأسنانهم - إذا لم تكفهم في التسلق أرجلهم. كانوا - وهم يصعدون في الجبل صخرة صخرة - يؤملون في فتح الطريق

إلى الظفر، إلى النصر المبين. استجمعوا كل قواهم، وشدوا الحبال على أعضادهم، وكونوا من أجسامهم المتراصة المتماسكة كتلة واحدة وتقدموا إلى الأمام صاعدين في سفح الجبل القائم أمامهم كأنه سد محكم البناء

كان عثمان في المقدمة. فتلفت حواليه. ورأى هذا المنظر العجيب، ثم شخص ببصره إلى قمة الجبل الذي كانوا لا يزالون يتسلقونه. . . آه. لو وصلنا إلى هذه القمة!. . . لو استطعنا وضع هذا المدفع هنالك!. . .

كان هذا المدفع هو كل شيء لهؤلاء الجنود. كان الأمل الذي تحيا عليه نفوسهم، والجنة التي تحفظ أرواحهم. صرخ عثمان في رجاله: (أسرعوا!. . .) صوتت الحبال على أعضاد الجند، وخطا المدفع خطوة خفيفة إلى الأمام، كأنه العروس ليلة زفافها تمشي الهوينا من الخفر والحياء

كان عثمان في المقدمة. يتبع كل خطوة يخطوها إلى الأمام بصيحة من أعماق قلبه قائلا:

(أسرعوا!. . .). والآن كانوا يصعدون إلى قمة الجبل وهم يجرون المدفع، منبطحين على الأرض، ملتصقين بالحجارة، يحفرون التراب بأيديهم وأظافرهم، يزحفون تارة ويقعون

أخرى، يتأرجحون في الهواء. قد تقطعت ملابسهم، وتشققت أيديهم، وتقرحت أعضادهم، وتخلعت أظافرهم. ولكنهم سائرون إلى الأمام دائما، لو استطاعوا أن يخطوا عدة خطوات أخرى إلى الأمام لبلغوا قمة الجبل، ولو ضيعوا المدفع هنالك، وربما كان هذا المدفع إذ ذاك قائد هذه الفرقة الصغيرة من الجند إلى الفوز والظفر!

كان عثمان في المقدمة، وكان يستطيع الآن أن يشرف على المناظر التي أمامه تماما من مكانه المرتفع. هذه الجبال التي قبالته، وجميع تلك الحصون والمعاقل التي للأعداء. كانت هذه الحصون الصخرية التي تقذفه بالنار واللهب ترى قريبة منه جدا، وكان يخيل لعثمان إنه لو مد يديه لاستطاع أن يقبض على هذه الحصون وتلك المعاقل بيديه القويتين ويضعها إلى صدره القوي المتين، فيسحقها سحقا ويذروها في الهواء. كان العدو قد بصر بهم وجعلهم هدفه، وصوب نحوهم أفواه مدافعه وأخذ يمطرهم وابلا من الصواعق والنيران، ليقضي القضاء الأخير على هذه الشرذمة من الجند الباسل. نظر عثمان إلى أصحابه وتأمل منظرهم فرأى منظرا عجباً. رآهم وقد رفعوا رؤوسهم جميعا إليه كأنهم يحيونه

التحية العسكرية. كانت عيونهم متجهة إلى السماء شاخصة كأنها تقول: (إلى الأمام!). ومرة أخرى قال: (أسرعوا!)، وخطا المدفع خطوة أخرى. آه. لو خطوا عدة خطوات أخرى مثل هذه الخطوة لبلغوا قمة الجبل. . .

وعلى حين غرة سقطت بينهم إلى جانب المدفع قطعة كبيرة من السحاب، وبعد لحظة انفجرت هذه السحابة وخرج منها بريق خاطف للأبصار، ومضت فترة لم يستطع عثمان أن يتبين شيئا مما حوله، ثم رأى خلال الظلام المخيم عددا من الجند الساقطين على الأرض. في هذه اللحظة أدرك الحقيقة المرة. وعلم أن العدو - بعد أن نجح في إصابتهم ومعرفة موقعهم - لا يلبث أن يدك هذا الموقع دكاً

كان الموقف حرجاً والوقت ضيقاً لا يسمح بإضاعة دقيقة واحدة؛ فصرخ في أصحابه - وهو يلقي على إخوانه المجدلين على الأرض نظرة كلها حزن وألم ورثاء - قائلا: (أسرعوا!)

انبطحوا على الأرض وجروا المدفع. ولكن يد عثمان استرخت وشعر فوق عضده بشيء بارد. فالتفت بسرعة وحل الحبل عن عضده المجروح وتمنطق به، ثم صرخ في أصحابه يشجعهم ويستحثهم وبذلوا كل ما كان في طاقتهم أن يبذلوه.

وتعلقوا بالأرض وتشبثوا بها. إلا أن عثمان في هذه المرة سقط على الأرض وصك أذنيه صوت يقول: (انقطع الحبل!. . .)

فهب واقفا. ورأى وهو لا يصدق عينيه المدفع يتدحرج على سفح الجبل بعد أن أفلت من الحبال التي كانت تمسكه

كان ذهاب هذا المدفع من أيديهم معناه انقضاء كل شيء بالنسبة إليهم ونذير القضاء عليهم قضاء أخيراً

في هذه اللحظة الحرجة ألقى عثمان نفسه على المدفع الذي كان يتدحرج على الصخور وينحدر إلى أسفل الوادي. وتعلق به ولكنه لم يستطع أن يصده ويحول بينه وبين الانحدار فقد كان المدفع ثقيلاً، وكان ثقل المدفع يدفع بجسمه الضعيف أمامه ويجره إلى الوادي العميق المخيف الذي تحته جراً عنيفاً قوياً. فهو تارة فوق المدفع، وتارة تحته، وفي الحالتين ينحدر إلى أسفل الوادي مضطرباً بين الصخور. يجره المدفع إلى حيث الهلاك والدمار. كان عثمان فاقد الوعي، لا يرى شيئا، ولا يعرف شيئا. إلا إنه وهو ينحدر إلى أسفل الوادي بشكل قوي لا مجال لمقاومته - كان يفكر في شيء واحد: ألا يترك المدفع يفلت من بين يديه. . . كان شاخص البصر يحدق تارة في هذه الغيوم التي تكونت من

دخان البارود وتلبدت حتى حجبت وجه السماء عن العيون. وتارة أخرى في منظر هذا الوادي العميق المخيف المحفوف بالأهوال. ومرت فترة وهو كذلك، ثم لم ير شيئاً ولم يسمع شيئاً. فقد سكت كل شيء وانمحى من لوح تفكيره. فلم يعد يشعر بتلك الجبال المشتعلة ناراً ولا يفرق العدو التي كانت تمطره وأصحابه وابلاً من الرصاص. لا شيء. لم يكن يشعر بشيء مما حوله أبداً.

أراد أن يتحرك. أراد أن ينفض عن جسمه ونفسه ما استولى عليهما من الاضمحلال والانحلال. أراد أن يمزق هذا الكابوس الجاثم فوق صدره ليتخلص من هذا الضيق. ولكنه لم يستطع الحركة. كان يحس بضيق أنفاسه. ويشعر بأن غمامة سوداء قاتمة تخنقه وتحبس أنفاسه في صدره. أراد يصرخ فلم يتمكن أيضاً

شعر بالوحدة والعدم يستوليان عليه، وأحس كأن نفسه تذوب بين جنبيه. وتفنى وسط هذا العدم اللانهائي الشامل.

ولما أدركه أصحابه وجدوه في شعب ضيق من شعاب الوادي محصورا بين صخرتين قابضا بكلتا يديه على شيء أمامه. فحاولوا فتح يديه. ولكنهما لم تفتحا

وأخيـراً اسـتطاع أن يفـتح عينيـه، فنـادوه: (عثمـان إنـك جـريح) فـأراد بصـره في أصحابه. وكأنـه لا يفهـم شـيئا ممـا حولـه، ثم نطق - وهـو شـاخص البصـر إلى قمـة ذلـك الجبـل الذي حاول تسلقه فقال: (أين المدفع؟)

لـم يملـك أصحابه حينئـذ أنفسـهم فتحـدرت مـن عيـونهم قطرات الدمع السخينة

إن المدفع كان بين يدي عثمان، وكان لا يزال يقبض عليه بكلتا يديه!

الحلة العسكرية

لم يكن الجيش الذي أحرز النصر الحاسم قد رايل (بوزيوك) بعد، وكان أهل قرى (أفيبنار) و (قرة كوس) و (جاس دره) وبقية القرى المجاورة يذهبون إلى (بوزويوك).

وكانت قوافل أولئك القرويين التي ازدحمت بهم الطرقات مكونة من النساء والفتيات والشيوخ الذين جاوزوا الستين من أعمارهم. ولم يكن بين تلك الأمواج الزاحفة إلى (يوزويوك) فتى واحد بلغ العاشرة لأن أولئك الفتيان كانوا في ميدان القتال منذ أسابيع.

فقد خفوا إلى ميدان القتال ليكونوا في مؤخرة جيش عصمت باشا ليساعدوه.

وكان في الصفوف الأمامية من ميدان القتال خطيب أجمل فتيان قرينه (جاس درة) زهرة الشقراء.

إن زهرة قد فارقت خطيبها (عمر) منذ بدء معركة (إبنونو) الأولى، وكان اندماج خطيبها مع الأبطال المجاهدين يهز أعطافها ويجعلها تتيه عجباً وغروراً، ولكن إلى جانب ذلك ألمها وحسرتها على فراق خطيبها ممضاً محزناً أيضاً.

أن هذا الفراق قد كسا خديها الورديتين شحوباً، وجعل لونهما مثل لون شعرها الذهبي الأصفر.

وكانت طول أيامها، وفي جميع ساعات يقظتها دائمة التفكير في (عمر) فإذا نامت رأته في منامها. وإذا نظرت في صفحة الماء تمثل لها. وكانت تحس في داخلها احساسات غريبة، وكانت كأنها تسمع أصواتاً تناديها قائلة: اقطعي أملك من عمر! ها هم أولاء أهل قرية (جاس درة) وقد انحدروا في الطريق، وها هي (زهرة) الشقراء بينهم، إنها اليوم نشوى طروب، كانت تمازح شيوخ القرية، وترسل ضحكاتها طليقة رنانة حيث ينتشر صداها في ذلك السهل المنبسط الفسيح.

إن خديها استعادتا لونهما الوردي الجميل، كما أن عينيها عاد إليهما بريقهما ولمعانهما السابق، وكانت ترتدي ثوبها الأصفر الجميل الذي يناسب شكلها، ويبرز بديع جمالها. كل ذلك لأنها.

- بعد ساعات معدودة - سترى حبيبها (عمر).

كان الجو في ذلك اليوم صحواً، والسماء زرقاء صافية، وكانت الشمس قد بلغت أقصى ارتفاعها إلا أنه كانت الريح

تهب عاصفة هوجاء زعزعاً، وكانت الأرض كأنها تدور مع الريح في كل اتجاه، وكان البرد قارساً شديداً.

كان الميدان الفسيح الذي صفت فيه الخيام حلقات يموج بأولئك الذين انتشروا أمام الخيام يحتفلون بالعيد، وكانت الطبول تدق من غير توقف، وتنشد أناشيد قرية (يانيق). وكان آلاف الناس الذين جاءوا من قرى ومدن البلقان يشتركون في الأعياد ويهنئون بذلك النصر المبين في ميدان الجهاد.

وعند الظهر تماماً دوت ثلاثة أبواق معاً، فسكن كل شيء في الميدان، ثم نادى (باش جاويش) بصوت مرتفع:

(المدنيون إلى هذا الجانب، والعسكريون إلى هذا الجانب الآخر وليتقدم المختارون إلى جانبي).

كان قد صدر أمر قائد المعركة المظفر عصمت باشا أن يعطي كل متطوع في الجيش من شباب القرى المجاورة إذن يوم يقضيه بين أهله، على أن يعود في اليوم التالي إلى الجيش.

وكان (الباش جاويش) سيكلف مختار كل قرية أن يتلو قائمة أسماء شباب قريته، وكل من يقرأ أسمه يخرج من

صفوف الجيش إلى صفوف المدنيين ويعتبر مأذوناً يوماً واحداً على أن يكون في مقر القيادة في اليوم التالي.

وعند الشروع في هذه العملية كان أهل قرية (جاس درة) قد وصلوا وانضموا إلى المدنيين من أهل القرى المجاورة المتجمعين في جهة اليسار، وبين هؤلاء القرويين الذين وصلوا أخيراُ (زهرة) الشقراء.

واستغرقت عملية القراءة الأسماء كاملة، وكان الميدان قد خلا إلا قليلا، وخفت جلبة الجماهير من المدنيين فيه إذ لم يكن قد بقي فيه إلا أهل قرية (جاس درة)، وإلا أمهات أو آباء أو إخوان بعض المتطوعين الذين قرأت أسماؤهم ولم يظهروا.

في هذه الأثناء تقدمت فتاة قروية جميلة، وعلها ثوب أصفر جميل حتى صارت بجانب (الباش جاويش) وقالت:

وأين متطوعوا قرية (جاس درة)؟

وعند ذلك سمعت من جانب العسكريين أصوات تقول:

هنا. هنا، فقال لها (الباش جاويش) أين مختار قريتكم يا بنيتي؟ وأين قائمة الأسماء؟ فأجابته قائلة:

إن مختارنا أيضاً في الجيش، فالتفت الباش جاويش إلى (الأونباشي) الواقف إلى جواره وقال له: أعلنوا في صفوف المتطوعين: كل من كان من قرية (جاس درة) من الشبان فليأت إلى هنا حالاً. وبعد نحو دقيقة واحدة كان نحو عشرين شاباً قد أقبلوا إلى حيث كان الباش جاويش واقفاً، والتفوا حول (زهرة) الشقراء التي كانت هناك وهم يتصايحون:

أيتها الفتاة زهرة، مرحباً بك يا زهرة. كيف حال القرية أيتها الأخت؟

وكانت كأنها لا تسمع شيئاً مما حولها وهي تكرر كلمتين اثنتين لا تنفرج شفتاها عن غيرهما: أين عمر؟ أين عمر؟ عمر. عمر. وفي تلك الأثناء كان أهل قرية (جاس درة) قد اختلطوا بأولئك الشبان يعانقونهم، ويتبادلون معهم القبلات مع دموع الفرح والابتهاج، وكان الذين التقوا بأمهاتهم أو إبائهم أو أخواتهم لم يأبهوا - أول الأمر - للحال المحزنة التي كانت عليها فتاتنا الصغيرة (زهرة) الشقراء، ولم يكن بقي حولها من تعرفه سوى الباش جاويش والأونباشي، والحاج صادق.

كانت عينا صادق قد ابتلتا بالدموع، وكان لسانه كأنه محبوس في حلقه، فلم يتمكن من قول شيء، وبصعوبة استطاع أن يلفظ كلمتي: أختي. زهرة.

وهنا كان قلب زهرة الشقراء قد انسحق ألماً وحسرة، ولم تعد تملك السيطرة على دموعها، فرفعت يديها كما يفعل المبتهلون الذين يطلبون المدد من السماء - وصاحت: (عمر. عمر. أين أنت؟).

وبينما صادق يحاول التحدث مع زهرة وإعطاءها كتاباً أخرجه من جيبه مع منديل يماني. كان الباشا جاويش قد وصل إلى زهرة الجميلة. ورفعها من على الأرض وضمها بين يديه كما بفعل الأب الحنون، وقلبها بين عينيها وهو يقول:

لا تبكي يا عزيزتي. أن البكاء لا يليق بالفتاة التركية، إن حبيبك عمر وقع في ميدان القتال شهيداً، ولكن التي نالها عمر لا ينالها كل أحد، واسمعي حتى أشرح لك المسألة:

وكان القرويون والشباب قد تجمعوا وكونوا حلقة ضيقة، وساد بين الجميع صمت رهيب، فأخذ الباش جاويش رأس زهرة بيده اليسرى وأشار بيده اليمنى إلى مسيل ماء ضيق يلوح من بعيد كأنه خيط دقيق رمادي اللون وقال: هل ترين

مجرى الماء الذي أمامنا، فقد كنا بعد ظهر أمس نطارد العدو النازل حول ذلك المجرى، وكان - على ما علمت بعد ذلك - عمر معنا، وانتهينا من هذه العملية، إلا أنه كان بقي على الجانب الآخر من النهر جنديان من جنودنا فوقع في أيدي فلول جيش العدو، وكانا يصرخان صراخاً مؤلماً وهما يجودان بأنفسهما بين أيدي العدو. في تلك الأثناء خاض أحد جنودنا الماء من جديد واجتاز النهر، وذهب لنجدة أخويه في الجندية، وفجأة وعلى غير انتظار - لا أدري كيف حصل ذلك - ظهرت بعض فلول جيش العدو هناك، وصار هذا الجندي الباسل الذي ذهب لنجدة أخويه - وذانك الجنديان معه - صار هؤلاء الجنود الثلاثة محاطين بقوة كبيرة من جيش العدو، وجدوا أنفسهم مضطرين إلى الدفاع عن أنفسهم ضد قوة تفوقهم أكثر من عشرين مرة. فصاروا يقاتلون ويدافعون عن أنفسهم كالأسود الضارية. وكان قتال مرير تساقط فيه الأعداء مثل سنابل القمح حصدت بمنجل حاد.

إلا أن أحد أبطالنا المقاتلين ببسالة كان قد وقع على الأرض فجأة فرأيت ضابطاً من ضباط الأعداء يلقي بنفسه عليه. وعند ذلك تحامل جندينا على نفسه، وبذل كل ما في

وسعه من جهد، وأمسك بيد ذلك الضابط، وعض إصبعه حتى قطعها، ويظهر أن ذلك الضابط فقد وعيه من شدة الألم، فلم يأبه للحربة التي في يده، وكأنه نسي طريقة القتال بالحراب، وأخرج مسدسه، وأفرغ كل ما فيه من رصاص في رأس ذلك الجندي الباسل.

ثم علمت هوية ذلك الجندي الشجاع - فق كان أشجع أفراد فرقتنا وأكثرهم إقداماً - إنه كان خطيبك عمر).

ثم واصل الباش جاويش تلك المشاهد أمامه، فقال:

(كان بطل (جاس دره) عمر مستلقياً على ظهره، وعيناه الواسعتان محملقتين في اتجاه الميدان، كان قد فارق الحياة).

بعد أن سكت الباش جاويش هدأت نفس زهرة قليلاً، وانقطع صوت بكائها أيضاً، وعند ذلك وقف صادق أمامها ومد يده إلى زهرة وقال:

زهرة خذي هذا الكتاب الذي كان عمر أعده قبل المعركة بيومين ليرسله إليك، ولم يرسله. وهذا المنديل الأصفر الذي معه فهو هدية إليك. فتناولت زهرة آثار خطيبها الشهيد كما تتناول كتاباً مقدساً، ثم دستها في صدرها، ومرت عدة دقائق

في صمت رهيب، ثم رفعت زهرة رأسها ونظرت إلى الباش جاويش نظرة توسل، ومدت إليه يدها بالكتاب الذي كاد يتمزق، وفهم الباش جاويش غرض زهرة من هذه الحركة، فقال: هاتي يا بنيتي حتى أقرأه لك.

هذا الكتاب الذي أعده عمر ليرسله إلى حبيبته، ولم يقدر له الوصول إلى القرية. لم يكن طويلاً، فقد قرأه الباش جاويش بنظرة سريعة ألقاها عليه، فامتلأت عيناها بالدموع. ويظهر أن هذا الجندي الذي كان قبل لحظات ينصح زهرة ويقول لها: لا ينبغي للفتاة التركية أن تبكي) - لم يستطع لن يغالب دموعه فمد الكتاب إلى الأونباشي الذي بجانبه قائلاً: أقرأه على زهرة.

إن هذا الكتاب القصير المكون من عدة أسطر المبدوء بكلمة: (زهرتي) كان يبين بوضوح أي بطل شجاع كان ذلك القروي التركي، وأي قلب كبير الآمال كان يحمل بين جنبيه (زهرتي) إني في شدة الشوق إلى رؤيتك، وألمي لفراقك لا حد له ولا نهاية.

في اليوم الذي نخرج العدو من هذه التربة - تربة الوطن - سنتزوج، وسأكون يوم عقد زواجنا في حلتي العسكرية. أن

عمر الجاس دره صار الآن الأونباشي عمر. وإلى الآن لم ألبس الحلة العسكرية. ذلك لأن الملابس العسكرية غير متوفرة. وأخبرنا القائد أننا جميعاً سنعطي الألبسة العسكرية في القريب العاجل.

أمس لبست حلة أحد رفاقي الجنود العسكرية، فقالوا لي: إنها منسجمة عليك جداً يا عمر. وسأرى هل تقولين أنت أيضاً مثل ذلك يا زهرة؟ ابقي سعيدة. سلامي إلى كل أهل القرية).

من ذلك اليوم لم تظهر زهرة الشقراء في القرية، لأنها لم تكن قد عادت إليها، إذ ماذا عسى أن تساوي قرية (جاس دره) بدون عمر؟!

بعد انتهاء معركة (اينونو) بالنصر الحاسم ذهب بعض الجنود البواسل من هذا الميدان للاشتراك في معركة التحرير في (إزمير)، فتحدث بعض هؤلاء أنهم رأوا في الصفوف الأمامية في المعارك الأخيرة في ميدان (انينونو) امرأة قادمة من إحدى قرى (يوزويوك) تلبس حلة عسكرية وتقاتل قتال الأبطال المستبسلين.

فقد استولت زهرة الصغيرة على الحلة العسكرية التي لم يتمتع حبيبها عمر بفرحة ارتدائها، واشتركت في القتال انتقاماً لخطيبها، وقاتلت حتى استشهدت في ميدان الجهاد كما استشهد خطيبها وحبيبها من قبل.